أصبح صاحب

أعمال وطنيا

جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية
دار النشر باللغات الأجنبية
١١٠ زوتشيه (٢٠٢١)

أصبح صاحب أعمال وطنيا

جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية
دار النشر باللغات الأجنبية
١١٠ زوتشيه (٢٠٢١)

سونغ داي كوان
(٢٩ أغسطس ١٩١٢ – ١١ يناير ١٩٩٤)

توطئة

يقال إن "القلم لا يأخذه المرء في أي زمن".

ولكن حين أقدمت على أخذ القلم هكذا، لم يكن السبب في ذلك عائدا إلى امتلاكي لتجارب الحياة غير المألوفة أو مهارتي البارزة في الكتابة. ذات مرة، جاءني أحد الصحفيين الشاب، وقال لي إنه يود الكتابة عن أبي. وفي لحظة سماعي لكلامه هذا، شعرت بدافع كبير لكتابة ما في ذهني من سيرة أبي كما هو عليه ولو كانت كتابتي أخرق مما كتبه الآخر على أساس حديثي عنه بعبارات جميلة. وخطرت على ذهني خاطرة أن القصص عن الأمهات تكثر في الدنيا لكن القصص عن الآباء نادرة.

جعلني هذا الدافع آخذ القلم بجرأة، تنتابني فكرة أنه يكفيني الأمر بمجرد الكتابة بصدق دون أي كذب أو تنميق، على الرغم من أني غير بارع في الكتابة. طبعا إني لم آخذ القلم إطلاقا بغرض المفاخرة بأبي.

كان طول حياة أبي هو عيشه جاريا بعد الجري لكسب المال. فإني كنت أعتاد دائما منذ طفولتي على أن أسمع قوله القائل بأن "عمل اليوم يتأخر في الغد". مشهد أبي الذي انطبع في عيني حين كنت صغيرا، هو مشهد من يدور

مشغولا دائما لضيق الوقت.

هذا الإنسان العادي، الصناعي الخاص الذي كان يركض ويركض طول حياته لكسب الأموال هو أبي بالذات. كيف استطاع إذن هذا الإنسان البسيط أن يغدو شهيدا وطنيا؟

من خلال مذكرتي هذه، أود أن أعلن للملأ كيف استقبلت حياة أبي الذي لم يكن إلا صناعيا خاصا، مناسبة تحول كبير.

بقلم سونغ سونغ هوي

فهرس

١ـ أبي ٤

ابن الراهب البوذي ٥

اهتداء بالضوء ١٦

٢ـ إياك أن ترى وراءك ٣٠

على نقطة انعطاف المصير ٣١

حتى في شيخوخة عمره ٤٣

٣ـ حياته المباركة ٥٨

كلمة ختامية ٦٩

١ - أبي

كنت أحتكر حب أبي منذ طفولتي. ربما لأني كنت صغرى من بين أبنائه وبناته السبعة، أو لأني كنت شبيهة بأبي في النقاط الكثيرة. وعلى كل حال، كان أبي أحبني أكثر من أبنائه وبناته الآخرين، وكان يحب أن يصطحب بي دائما، حين يذهب إلى أي مكان.

منذ بلغتُ عمر الرشد، كثيرا ما كان أبي يحدثني بالارتباط مع حياته الماضية عن الكلمات التي تكون دروسا بمثل "يجب على الإنسان أن يكون فائزا في أي عمل"، و"إن الوقت الفائت لن يعود مرة أخرى". وعلى ذلك، صرت أعرف تفاصيل تاريخ حياة أبي، التي لا يعرف حتى إخوتي الأكبرون كلها، و"أسرار الحياة" التي كانت مضمورة في أعماق ثناياها. حين أتحدث هنا عن "أسرار الحياة"، لا أقصد إلى أن أبي كان يخفي أي نوع من حوادثه المدهشة أو أعماله المريعة الماضية مثل القتل أو السطو.

لم يكن أبي إنسانا يخفي أي شيء في حياته، بل إنه شخص يكره حتى حمل حافظة نقود، ولا توجد لديه ا أسرار خصوصية. لم تكن لأبي فسحة من الوقت ليراجع فيها ما جرى في الماضي. كان من واجبه أن يفكر في العمل المراد تحقيقه، وكان الوقت ينقصه دائما لتخطيط العمل الجديد.

قد يظن بعض الناس أن أبي سونغ داي كوان هو صاحب الأعمال الثري وغني بالممتلكات، أو ابن الثري، لكنه في الواقع كان هو ابن الراهب البوذي

الذي كان يلبس رداء فضفاضا أسود اللون، ويقرع ناقوسا خشبيا وهو يردد "حمدا للبوذا". ههنا أيضا، توجد قصة مصيرية غريبة، فإني أود أن أبدأ بحديثي عن أبي من هنا.

ابن الراهب البوذي

في أحد الأيام من أواسط القرن التاسع عشر، أبصر المولود الذكر نورا في إحدى الأسر الفلاحية الفقيرة الكائنة في قضاء هويدوك بمحافظة تشونغتشونغ في كوريا.

رغم قسوة الحياة، كان نمو الطفل سرورا للأسرة، وفي رعاية الوالدين، نما الطفل، حتى صار صبيا. لكن سرور هذه الأسرة لم يكن يدوم، إذ أن الوالدين فارقا هذه الدنيا اللعينة تاركين أولادهما. حين صار الصبي يتيما لا معيل له، اضطر إلى سلوك طريق التشرد مع أخته الكبيرة، لكنه على هذه الطريق، فقد أخته أيضا. صار الصبي يجوب الأرض على غير هدى، حتى جاء إلى هيانغسان في محافظة بيونغآن الشمالية.

لم يستطع الصبي أن يواصل السير للجوع المضّ، فضلا عن المرض الذي أصابه، حتى سقط على قارعة الطريق. في ذلك الحين، رآه الراهب البوذي الذي كان يتجول طلبا للصدقة، وأشفق عليه، وأحضره إلى المعبد.

ذلك الصبي سونغ كيونغ هوان جدي بالذات. هكذا، صار الصبي راهبا بوذيا.

مع مرور الزمان بسرعة، بلغ عمر الصبي إلى عمر الشيخوخة الستين، ولكن في يوم من أيام الربيع في أحد الأعوام، شعر جدي بالعطشان أثناء مروره بقرية زانغهونغ من قضاء سوكتشون، فتوجه إلى ينبوع المياه حيث كانت إحدى

النساء تغسل الأرز، وطلب إليها ماء الشرب، وغرفت الإمرأة الماء في القرع، وأزاحت قطرات الماء من خارج القرع بعناية بيدها البيضاء، ورفعته إليه باحتشام، حتى صار جدي مسحورا بمشهدها الأنيق والنظيف.

في ذلك الحين، كان جدي عازبا في الثالثة والستين من العمر. هكذا، بلغ عمره مرحلة الخريف، لكن همته المدفونة حتى ذلك الحين فارت من كل كيانه، حتى تجرأ على ترك القواعد البوذية دون أن يشعر بأي أسف، وباع الأرض التي كان قد اشتراها، وبتلك الأموال، انتقل إلى قرية زانغهونغ حيث تسكن تلك الامرأة. أي أنه عاد إلى حياة الدنيا، مثلما يقول البوذيون.

ومنذ ذلك الحين، كان جدي يعيش وهو يعتني بالحقول وبستان الأشجار المثمرة، ورزقت منه أولا البنتان، وفي عام بلوغ عمره ٦٨ سنة، رزق منه طفل (أبي سونغ داي كوان).

كم كان سرور جدي عظيما، حين رزق منه الطفل اللطيف في آخر حياته. فكان يجول في أنحاء القرية ليحصل على عسل. في تلك الفترة، كانت العادة المطبقة في القرى الجبلية من محافظة بيونغآن الشمالية هي أن النفساء يجب تناول العسل حتما بعد وضع المولود. حين كان جدي يجوب للحصول على العسل، سأله الناس مفرقعين ألسنتهم: لماذا تطلب العسل، هل رزق منك مولود مرة أخرى؟ ... وعندئذ، أجاب لهم مبتسما كما لو أنه انتظر هذه الأسئلة: رزق مني طفل. ثم أسرع إلى هذا البيت وذاك، يطلب عسلا. كان جدي يعرف بوضوح أن هذه الأسر الفلاحية الفقيرة لا تملك عسلا، لكنه كان يدلف حتى إلى آخر بيت منعزل ليفاخر بمولوده الحديث، على ما سمعته.

من خلال تسمية ابنه بـ"داي كوان" بمعنى "التاج الكبير"، ليس من الصعب تخمين كم كان أعظم أمله لابنه. ولكن بعد زمن قليل منه، مضى جدي سبيله بعد أن ترك في الدنيا أمنيته المنشودة لوضع التاج الكبير على رأس ابنه، كما لو أنه عاش طول حياته من أجل ابنه هذا، وهو يلبس رداء بوذيا أسود ويقيد نفسه بالقواعد البوذية المعقدة.

كان حب جدتي لأبي غير مألوف، ربما لأنه صار مولودا بمصير غريب. رغم أن جدتي قد ربت ثلاثة أبناء من زوجها السابق المتوفي، لكن حبها لابنها الأخير الذي أنجبته بزوجها الراهب البوذي السابق كان استثنائيا. لا أدري أن ذلك يعزي إلى أن هذا الابن الأخير كان ذكيا غير مألوف منذ نعومة أظفاره.

حين تخرج أبي من المدرسة الابتدائية، أرسلته جدتي إلى مدرسة سونغدوك الثانوية البعيدة التي تقع في نيونغبيون، وجعلته يدرس فيها. ولكن حين أتم أبي ثلاث السنوات من دراسته، كتبت جدتي إليه بأن يعود سريعا إلى البيت، ويرث أملاك أسرته.

في تلك الفترة، كانت جدتي تملك بستان أشجار التفاح عددها ٤٠ شجرة. لكن الأبناء المولودين من زوجها السابق كانوا يبددون الأموال الواردة من ذلك البستان بالمقامرة. ولذلك، علقت جدتي أملها الأخير على ابنها الأصغر الذكي والصادق.

وعلى ذلك، اضطر أبي إلى إيقاف دراسته الثانوية في منتصفها، وعاد إلى بيته، ليبدأ بعمل التجارة. كان رصيده هو أربعون شجرة تفاح فقط. فإن كيفية تحويلها إلى المال وكيفية تضخيمه كانت تشبه بأول امتحان يحقق في مقدرته الجديرة بصاحب أعمال.

اختار أبي أسلوبا مختلفا عن أسلوب المتاجرة الكيفية الذي كان يطبقه إخوته

من زوج الأم مجانين القمار.

أولا، نقل التفاح إلى اتجاه كانغكاي البعيد بدلا من اتجاه سينويزو القريب، بحيث استطاع أن يبيعه بسعر أغلى بضعفين تقريبا مما في سينويزو. لأن التفاح كان قيما جدا في المنطقة الداخلية من شمال كانغكاي.

ثم إنه لم يكن يهدر الأموال التي كسبها ببيع التفاح ولو فلسا واحدا. لم يكن يذهب إلى المطعم أو الحانة، وكان يوفر فلسا بعد فلس حتى عند شراء خبز واحد.

لكن ذلك لا يعني إطلاقا أن أبي كان شحيحا. إذ لم يكن يستهلك فلسا واحدا من أجل ترف نفسه أو لعمل غير مربح.

كان الشيخ غرانديت في رواية بلزاك يشعر بمتعة حياة الإنسان، حين يستمتع بسرور غير متناه، فيما هو يسمع رنين العملات الذهبية التي أخرجها من الكيس خلسة في منتصف الليل ويقرعها واحدة بعد الأخرى بأنامله، ويقضمها بالأسنان، ويراها في ضوء نار المصباح، لكن أبي كان يعرف جيدا كيفية استهلاك تلك الأموال الهائلة التي يكسبها. (بخصوص ذلك، سأتحدث لاحقا بالتفصيل).

كان أول الشؤون التجارية التي قام بها أبي ناجحة. طبعا، لا أستطيع أن أعرف كم من الأموال كسبها. على كل حال، كانت جدتي التي تنتظر عودته بفارغ الصبر على الدرب التلي، تسأله مدققة في هول المفاجأة، حين قابلته، هل سرقها.

ربما كان أبي بارعا في التجارة. منذ ذلك الحين، وضع يده على مختلف الأنواع من التجارة بالجملة أيضا، وبدأ يرسي بجد الأسس الكفيلة بتحويله إلى صاحب الأعمال الشهير في المستقبل البعيد. أضيف إلى هذه الأسس سند مدعوم

آخر وهو تزوج أبي مع أمي كيم تاي بوك عام ١٩٣٥. بخصوص ذلك، أود أن أتطرق هنا باختصار.

في أيام الشباب المغلي بالدم، كان جدي من الأم كيم إين كو يقوم بحراسة البلاط الملكي بكونه جنديا في جيش كوريا القديمة، ولكن بعد حل الجيش الكوري من قبل اليابانيين إجباريا، التحق بالمدرسة المسيحية في بيونغ يانغ الشرقية بمساعدة رجل ما، ليحصل على هوية القس.

بما أن أمي ترعرعت في هذه الأسرة، كانت هادئة ونظيفة ويحسب لكل شيء حسابها.

وبما أن أمي نمت براحة البال في البدوار، بفضل أبيها القس، ذهبت إلى مسقط رأس أبي قرية زانغهونغ لتتعرف عليها، حين طرحت مسألة الزواج منه، وهزت رأسها رفضا، لأن قريته المشوشة وأبي التاجر كليهما لم تكن تعجب بهما. فحاولت العودة فورا إلى بيونغ يانغ، بعد أن أعلنت موقفها المرفوض. لكن أبي وقف في وجهها.

ههنا أيضا، يمكنني أن أرى جانبا من جوانب طبع أبي. كان طبع أبي هو بت أي أمر فورا، إذا كان ذلك يعجب به. ففي مسألة الزواج أيضا، فعل فعله ثباته الممزوج بالذكاء والحزم، الذي يجدر بأصحاب الأعمال. سمعت أن أبي قال حينذاك في وجه أمي: هيا نذهب معا إلى بيونغ يانغ، إذا رفضت العيش هنا. سأذهب معك، بعد بيع الحقول وبستان الفواكه كلها.

رغم أن أبي كان ذا وجه أسمر وشفاه غليظة، بتّ هكذا أمر طول حياته للحظة. ربما لأن مزاجه الجديد بالرجل هذا ربط أمي الفتاة النامية في البدوار ذات الوجه الأبيض الصافي مربوطا بشدة بالرباط غير المرئية، حتى أحنت

رأسها بخشوع دون أن تنبس ببنت شفة، وظلت تخدش الأرض بحافة حذائها.

هكذا، جذر والديّ جذور حياتهما في بيونغ يانغ. بدا لي أن زواجهما أشبه إلى حد ما بزواج جدي. بينما كان جدي حمل إليه جدتي بعد وضعها في الكيس، حمل أبي إليه أمي بعد ربطها بالرباط غير المرئية.

لا أدري لماذا أشعر بشعور الغرابة، حين أفكر بهدوء في سير والديّ إلى بيونغ يانغ في ذلك اليوم، سلوك ابن الراهب البوذي وبنت القس المسيحي معا نفس الطريق الموجهة إلى الهدف الواحد المسمى بصاحب الأعمال. لا أدري كيف أصف ذلك الشعور. من المؤسف جدا أني لم أكن أديبا.

أمام أبي، بدأت حلبة النشاط الجديد بالانفتاح، لبتّ قراره في ذلك اليوم للتوجه إلى بيونغ يانغ. أولا، أقام أبي طاحونة في دايبيونغ، وعلى إثرها، وضع صناعة التريكو، وانهمك أيضا في التجارة ولا سيما التجارة بالجملة. ازدهرت أعماله يوما بعد يوم. ازدادت أمواله، وتكاثر عدد معارفه أيضا، وبذلك، تثبت اسمه بكونه صاحب الأعمال أيضا.

لكن ذلك لم يكن يدوم كثيرا. فقد بلغت الحرب الباسفيكية أوجها. وبموجب ذلك، ازدادت سياسة اليابانيين لنهب الكوريين أكثر قسوة على مر الأيام. كان اليابانيون يصرخون بصخب بأن "قطرة من الزيت هي قطرة من الدم"، وامتصوا عرق الكوريين ودمهم، فيما هم يطلبون إليهم استخلاص زيت الخروع والصنوبر.

لم تكن مشاريع أبي أيضا تستثني من ذلك. راحت مشاريعه تضمحل يوما بعد يوم، ووقع أبي في حالة اليأس.

في ذلك الحين بالذات، وقعه حدث كبير من تحرر الوطن (١٥ أغسطس/ آب

١٩٤٥)، حتى طرأ تحول درامي على مصير أبي أيضا. كانت البلاد كلها تغلي بالرقص والأغاني كل يوم، وغصت شوارعها بجماهير المسيرة التي تهتف "ليحيا تحرر الوطن!" وعقدت الاجتماعات وجلسات الحوار والمؤتمرات في الخلاء دون وقت محدد، حيث كان الخطباء يصرخون بملء أصواتهم عن طريق سلوك كوريا الجديدة. ومن حين لآخر، ظهر الأشخاص الأشرار والرجعيون متنكرين بقناع "الوطنيين" و"الثوريين"، صارخين "بالديكتاتورية البروليتارية". في خضم ذلك، لم يكن سرور أبي أيضا يدوم طويلا.

إذ انتشرت شائعة مريعة تقول إن الحزب الشيوعي يقضي على كل أنواع رؤوس الأموال، وكل الممتلكات يتم "اشتراكها" ولا توجد الممتلكات الخاصة، وبعد مضي وقت قليل من ذلك، ظهر الرجعيون المتقنعون بقناعات "رئيس مركز الأمن" و"رئيس فرقة الدفاع الذاتي" المزعومين ليهددوا ويهوّلوا أصحاب الأموال، وبدؤوا باقتيادهم بعد تقييدهم بالقيود.

في غمرة هذا الحدث الصاخب اضطر إلى الابتعاد بالتدريج عن الناس. جاء إليه خبر يفيد بأن الطبيب لي بيونغ هون أحد معارف أبي قد اعتقل، بتهمة أنه "عنصر موال لليابان"، كان يدير عيادة خاصة، ويعيش بثراء بعد أن تزوج من الإمرأة اليابانية.

لم يكن بوسع أبي أيضا أن يكون سالما، طالما أن الإشاعة القائلة بأنه كسب أموالا طائلة بإدارة المشاريع الخاصة قد انتشرت على نطاق واسع وبالفعل، ما لبث أن جاء إليه شخص يدّعي برئيس قسم المراقبة (كان هذا الرجل جابي الضرائب في هيئة بيونغ يانغ لجباية الضرائب قبل التحرر) ببعض الرجال المسلحين، وقاموا بتفتيش البيت، وهدّدوه بإحضار قطع الذهب المخبأة وقائمة

الأملاك قائلين إن الحزب الشيوعي يصفي حتى جميع أصحاب الأعمال الخاصة فضلا عن الملاك العقاريين والرأسماليين والعناصر الموالية لليابان.

حقا كان هذا الزمن مشوّشا جدا. رغم أن البلاد قد استقبلت تحريرا، لكنها كانت خارج النظام، حتى سادها الاضطراب والتشوّش.

في هذا الوضع، شعر أبي ببالغ القلق، حتى قرر الفرار. خطط للتوجه إلى الجنوب أي سيؤول، حيث يبدأ بإدارة المشاريع. وعلى ذلك، استأجر المركبين العاملين بالمحرك، وشحن فيهما الأسمنت وحلويات الذرة السائلة وغيرها بملء حمولتهما، وغادر بهما، وطبعا، حمل بقطع الذهب التي قد خبأها.

في أول الأمر، أرسى في ميناء إينتشون، واتصل بصديقه القديم في الأعمال، ومن خلاله، جمع العمال وحصل على الشاحنة أيضا، ونقل الشحنات إلى سيؤول، حيث ساعده عديد من أصدقائه من كل النواحي.

ولكن حدث أمر غير متوقع له. إذ أن هيئة الإدارة العسكرية الأمريكية أصدرت أمر اعتقاله، بالتهمة الباطلة لاختلاس الممتلكات المصادرة من العدو، بحيث اضطر إلى الاختفاء في علية أحد المنازل الواقع في الزقاق الخلفي، بمساعدة أحد أصدقائه، حتى صار يتخلص من الخطر المحدق به مؤقتا.

في ذلك الحين، كانت هيئة الإدارة العسكرية الأمريكية تصادر كميات هائلة حتى من الأملاك الخاصة، بدعوى ممتلكات العدو، وهدّدت بمن يمس بممتلكات العدو مثل الأدوية والآلات والتجهيزات والأسمنت والبارود يعدم بالرصاص.

إيضاح الحقيقة مواجها وجها لوجه مع الأمريكيين كان مستحيلا. نصح الصديق لأبي بالفرار قائلا إنه إذا ساءت الظروف له فإنه يصبح ميتا في السجن.

ولكن تساءل أبي في نفسه: إلى أين أهرب؟ ...

لقد هرب أبي من الشمال، وكان أبي هو صاحب الأعمال الذي لم يكن يعرف إلا مالا، لكنه اضطر إلى الفرار من بلده المتحرر والعيش مختبئا، والآن، أظلمت الدنيا في عينيه.

في ذلك الحين، انتشر في سيؤول مقول إن القائد كيم ايل سونغ قد عاد مظفرا إلى الوطن، وسيجيء إلى سيؤول عما قريب، مما جعل قلوب الناس تغلي بالسرور والانفعال.

فقد شكلت "اللجنة التحضيرية للترحيب بالقائد كيم ايل سونغ"، وقيل إن السيد هونغ ميونغ هوي صار رئيسا لهذه اللجنة. كل يوم، تدفق مئات آلاف سكان المدينة إلى محطة سيؤول للسكك الحديدية.

توجه أبي أيضا إليها في سيل منهم، حيث وقع بصره على صورته الملتصقة على حائط المحطة، حتى تسمر في مكانه. كان ذلك هو الإشعار الرسمي عن الأشخاص الذين تلاحقهم الشرطة، وكان منهم اسم أبي أيضا. جاء في ذلك الإشعار أن أبي هو "عامل سري" أرسله الشمال. واضح أنهم يخططون لاعتقاله حتما.

ضرب أبي الأرض بقبضته، وخمش صدره، لكنه لم يجد أي جهة يشكو منها. حقا إنه وقع في الخطر المحدق.

ذات يوم من ذلك، تسلق صديق أبي علية بعجلة، وصاح له: يا أخي سونغ! انزل سريعا!

في تلك اللحظة، فكر أبي أن نهايته جاءت أخيرا. ظن أن رجال الشرطة بحثوا عن ملجئه، وانقضوا عليه. ترامى إلى سمعه همهمة الناس في الأسفل. نزل أبي إلى الأسفل، بقيادة صديقه في حالة انهيار جسده.

قال لي لاحقا إن كل الناس الذين يضحكون ويضجون متطلعين إليه تراءوا في عينيه كشرطيين يضحكون حاقدين وهم يأخذون القيود أو الحبال.

ولكنه عرف أخيرا أن الكثير من الناس يضحكون ويضجون منتظرين إذاعة بيونغ يانغ. قالوا إن القائد كيم ايل سونغ سيلقي بعد قليل خطاب عودته المظفرة إلى الوطن. جلس أبي في المكان الذي قاده الناس إليه.

أخيرا، بدأ خطابه التاريخي. كان ذلك هو يوم الرابع عشر من أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٤٥.

أصغى أبي إلى خطاب القائد بالإذاعة حابسا أنفاسه، دون أن يعي انهمار الدموع بغزارة من عينيه. وعلى الأخص، ضرب صدره صوت القائد الجهوري، حين دعا قائلا إن جميع الناس يجب عليهم أن يساهموا مساهمة إيجابية في بناء الوطن بما يتوفر لهم من القوة أو المعرفة أو بالمال.

كلما تذكر أبي ذلك اليوم الذي لا ينسى، لم يتمالك نفسه من شدة التأثر والانفعال، وقال: حقا إني شعرت بالإشراقة أمام عيني، كما لو أن أضواء الشمس المشرقة تسطع لي فجأة، بعد أن تسكعت في جوف الظلمة. لن تفهموا كل ذلك. قد تفكرونه أمرا عاديا، فيما أنتم تشاهدون الأفلام أو تقرؤون الكتب عن ذلك. لكن من عانوا ذلك مباشرة ليسوا كذلك.

لا يمكنني أن أصف كل ذلك بالكلام. كيف أستطيع أن أعبر عن المشاعر التي أحسست بها، حين تدفقت الدموع من عيني، بعد أن أصابتني غصة في وقت استماعي إلى خطاب القائد بالإذاعة...

حقا إن ذلك كان نداء محبوكا بحبه وثقته، فتح أبواب قلوب عشرات ملايين الناس على مصراعيها، وأشبه بالمنار الذي أضاء طريق تقدم كوريا الجديدة.

لذا فإن أبي لم يكن يبقى بمجرد هرق الدموع، بل إنه قرر قائلا في نفسه: هيا أذهب إلى بيونغ يانغ، لأدلي بإسهام ولو قليلا في بناء الوطن.

هكذا، انطلق أبي مرة أخرى على طريق التوجه إلى الشمال. في بداية الأمر، خطط للذهاب إلى كايسونغ بالقطار. لكنه غيّر خطته، بعد أن رأى شرطي القطار يتأملون فردا فردا من الراكبين في ضوء صور المطالبين للشرطة. كان بينهم صورة أبي أيضا. فإنه توجه إلى جزيرة كانغهوا، وبالاستفادة من وقت الجزر، تمكن من عبور البحر.

تنتابني الثقة الأكيدة بأنه اختار الطريق إلى الشمال، فيما هو يتذكر خطاب القائد كيم ايل سونغ بالإذاعة وتقرع أذنيه تعليماته القائلة بأنه يجب على جميع الناس أن ينطلقوا إلى بناء الدولة بما يتوفر لهم من المال أو التقنية أو القوة. في ذلك اليوم، هتف أحد أصدقائه الذي رافقه إلى جزيرة كانغهوا بصوت مبلل بالدموع: وداعا، يا أخي سونغ!

الصديقان في المشاريع كانا يفارقان أحدهما إلى الشمال والآخر إلى الجنوب. ماذا فكرا حينذاك يا ترى. ربما لم يعرفا إطلاقا أن أي مصير مختلف تماما من الأفراح والأتراب ينتظرهما على طريق حياتهما.

لم يعرف أبي حتى لحظة أخيرة من حياته مصير ذلك الصديق الذي ودعه بين الدموع وكذلك حياة أم موت أولئك الشركاء والمعارف في سيؤول وإينتشون. لا أدري لماذا لم يخبرني أسماء أولئك الرجال.

ربما لأنه أراد أن يتحدث لهم مباشرة عن طول حياته المباركة، بعد أن يبقى حيا حتى يوم توحيد الوطن. بالفعل، قال إنه سيتحدث عنها لهم، حين كان على قيد الحياة. حقا إنه لأمر يؤلم فؤادي. إذا كانوا على قيد الحياة حتى الآن، فإنهم

سيتذكرون بتأثر أبي الذي كان قد توجه إلى سيؤول، من خلال مذكرتي هذه.

ولكني أرجو بإلحاح، ولو لم يكونوا على قيد الحياة حتى الآن، لأرجو أن يكون ثمة أي شخص من أبنائهم يعرف اسم أبي.

اهتداء بالضوء

حل شهر فبراير/ شباط ١٩٤٦. صار أول الربيع بعد التحرير.

حين عاد أبي إلى بيونغ يانغ بعد أن سبح في البحر الهائج مجازفا بحياته، بدأ بالنشاطات الاقتصادية من جديد.

فكر أن عددا كبيرا من المدارس سيستحدث، وسيتعلم عدد هائل من الأولاد في بلادنا المتحررة. سيحتاج التعليم إلى الأقلام. إن الأقلام قيمة وملحة رغم صغرها. حمل أبي مصيره على هذه الأقلام الصغيرة، باتخاذها كقبان له.

كان ثمة المواد الخام والأولية.

كانت جذوع الأشجار التي تركها اليابانيون عند هروبهم بعد الانهزام تتكدس بكميات كبيرة في محطات الشحن للسكك الحديدية.

لم يكن ذلك وحده حسن حظه بل إن حظه الآخر جاء إليه، إذ أنه لاقى صدفة نجارا وخراطا وكهربائيا كان يصنع القضبان الكربونية في مصنع الأدوات الكهربائية ممن كانوا يقون من المطر تحت إفريز أحد البيوت الذي لجأ إليه ليقي من المطر الذي فاجأه عند طريق عودته من محطة الشحن للسكك الحديدية.

كان هؤلاء الناس يتشاورون فيما بينهم أسلوب البحث عن فرصة العمل. حين عرفهم أبي، كان سروره عظيما، وهتف في نفسه:

كفاني الأمر الآن، يمكن بهم صنع الأقلام حالا.

قبل العمال طلب أبي بسرور. وعلى ذلك، استأجر أبي أولا، مبنى في حي سو (في ذلك الحين) من مدينة بيونغ يانغ كموقع العمل، واشترى مخرطة الخشب والمنفاخ، وجمع ثمانية العمال، ونقل ما اشتراه من الرصاص الأسود في كانغكي. وبعد عدة الأيام من ذلك، صدر ما أنتجه من الأقلام، وطبع عليها علامة تجارية "سامتشولي" بمعني مساحة أراضي كوريا المؤدية إلى ثلاثة آلاف ري (١٢٠٠ كلو مترا - المترجم).

طبعا إن قلم "سامتشولي" المطبوع بالقلوب البسيطة لم يكن إلا شيئا صغيرا، ولكن لم يعرف أحد حتى ذلك الحين أن هذا الشيء الصغير سيمجد طول عمر أبي حتى يغدو براقا كأحرف ذهبية.

في ذلك الحين، تم إنتاج الأقلام يوميا بمقدار ثلاثمائة قلم.

ما إن انتشر خبر إنتاج الأقلام حتى توافد عدد كبير من الناس إلى هذا المصنع ناكر الاسم بعد. وفي ذلك الحين، لم يتصور أبي حتى في الحلم أن هذا الخبر سيصل إلى القائد العظيم كيم ايل سونغ.

في الوقت اللاحق، عرف أن أول من قدم إليه تقريرا عن إنتاج هذا القلم هو الوالدة كيم جونغ سوك البطلة المناهضة لليابان.

بعد أن قدمت هذا التقرير إلى الزعيم العظيم، اقترحت له بذهابها إلى المصنع قبله وتفقدها له، وزارت بصحبة ابنها الصغير كيم جونغ ايل مصنع الأقلام الصغير الذي يقع على ضفة نهر بوتونغ.

يمكننا أن نعرف أيضا من خلال ذكر الكادر الذي رافقهما في ذلك اليوم أن أبي نفسه لم يخطر بباله أن إنتاج الأقلام الذي بدأ به سيقدم تلك الدرجة الكبيرة من السرور والابتهاج للزعيم العظيم.

كان اليوم الثالث من فبراير/ شباط عام ١٩٤٦ يوما مصيريا قرر طول حياة أبي. في وقت الغداء من ذلك اليوم، خرج أبي لتوه من بوابة المصنع لزيارة مكان ما بعجلة لتسوية مسألة نقل الأخشاب، وحينذاك، وقفت سيارة الركاب على الطريق العام، وترجّل منها رجل، وراح يمشي إلى اتجاه المصنع.

لم يكن يعرف أبي حينذاك أن ذلك الرجل هو بالذات شمس الأمة، القائد كيم ايل سونغ الذي يتطلع إليه جميع أفراد الأمة الكورية.

لكنه فكر أنه ليس رجلا عاديا بالنظر إلى مظهره الاستثنائي مثل عينيه البراقتين وملامحه الوضاحة والغمازتين المؤثرتين المحفورتين على خديه، فضلا عن قامته الطويلة، وكان ذلك الرجل شابا يلبس سترة سوداء أحادية الصدر وعليها رداء، وكان يمشي إلى جهة أبي بخطى نشيطة وحيوية، وتتطاير أطراف معطفه بالريح.

شعر أبي بأنه رآه حتما في مكان ما.

بينما ظل أبي واقفا حابس أنفاسه، دنا الرجل إليه، وبادره سائلا هل هنا مصنع القلم، وأين يكون الآن السيد سونغ داي كوان. فوجئ أبي بأنه يعرف حتى اسمه.

- ها أنذا سونغ داي كوان.

أجابه أبي بصعوبة، وهو يبلع غصة في حلقه. بعد أن سمع الرجل جواب أبي، قال مبتسما ابتسامة مشرقة:

- **آه، سمعت عنك كثيرا، ولكن يسرّني أن ألتقي بك هكذا.**

عندئذ فقط، أدرك أبي أنه هو القائد كيم ايل سونغ ذو وجه مليح تفور منه إشراقة، وتتراقص عليه ابتسامات واسعة، وصوته جهوري، وعيناه

براقتان، ويدل مظهره على النبل والشرف حقا...

ها هو القائد كيم إيل سنغ!

شعر أبي بالوميض يبرق أمام عينيه، وأحس فجأة كما لو أن صدره غاص بقلبه. حتى حين أمسك الزعيم العظيم كيم ايل سونغ بيده بحرارة، لم يتفوه بكلام التحية كما ينبغي بسخونة عينيه من شدة التأثر والانفعال.

قال الزعيم العظيم مفعما بالسرور: **إني جئت إليكم لأرى صنعكم الأقلام، هيا إلى موقع العمل!**

كان المصنع مجرد اسمه فقط، وفي الواقع، كان موقع العمل قذرا جدا، حيث كان العمال يعملون وسط مساحيق الرصاص الأسود وغبار الفحم.

لكن الزعيم العظيم نقل خطاه إلى جهة موقع العمل الذي يدوي منه صوت الآلات، مبتسما ابتسامة مشرقة. تبعه أبي أيضا بعجلة.

بعد أن ظل الزعيم يرقب موقع العمل لبرهات، توجه إلى حيث يشكل العمال زوايا الأقلام، وبادر إلى تقديم تحيته لهم قائلا **"شكرا على جهودكم. تصنعون ما هو جيد"**، وسألهم عن عدد العمال. رد عليه أبي أن عدد العمال ثمانية. وعندئذ، أعاد السؤال كم هي مساحة الإنتاج في المصنع.

أجاب أبي أنها تبلغ نحو ٣٥٠ مترا مربعا.

بعد أن سمع الزعيم جواب أبي، نقل خطاه إلى مكان ينتصب فيه المسحاج الآلي الذي يعمل على تخديد الغلاف الخشبي للقلم لإدخال الرصاص فيه.

بعد أن تفحص القائد عملية تخديد الغلاف الخشبي، سأل مرة أخرى: **"من أين تأتون بالخشب والرصاص"**. قال له أبي إن الخشب يتم نقله من مختلف أنحاء كانغكي، والرصاص أيضا يتم نقله من منجم دونغبانغ في كانغكي.

وحين عرف الزعيم أن القلم يتم صنعه من خشب الزيزفون، علمهم قائلا "**إن أخشاب الصنوبر الأحمر أيضا يمكن صنع الأقلام بها".**

وبعد ذلك، أعاد سؤاله "**كم عدد الأقلام التي يتم صنعها يوميا؟**".

وبعد أن سمع جواب أبي أن ١٥٠٠ قلم يتم صنعها يوميا، قال: "**إن بلادنا زاخرة بالرصاص، وما أفضل أن نصنع الأقلام بأيدينا باستعمال المواد الخام المتوفرة في بلادنا! رصاص كانغكي أفضل.**"

وأخذ الزعيم أحد الأقلام، وعاينه، وقال: "**حين كنا نقاتل في الجبال، كان أفراد جيش حرب العصابات يتعلمون الحروف الأبجدية، فيما هم يكتبونها على الرمال، لنقص الأقلام. إن القلم ثمين حقا. كنت مقلقا على القلم، بعد أن عدت إلى الوطن المحرر، لكني سمعت من السيد كانغ ريانغ ووك أن الأقلام تصنع في هذا المصنع، فإني أسرعت إليه مسرورا.**"

وبعد ذلك، طلب أن يريه مكانا تصنع فيه أصابع الغرافيت. حين أبي قال إن هذا المكان قذر، بحيث يصعب عليه أن يريه، قال الزعيم: "**إنك تقول إن هذا المكان قذر، لكننا وصلنا إلى هنا لنر عملية صنع الأقلام. فلا نشكو من ذلك. لا عليك.**" وتوجه إلى مكان صنع أصابع الغرافيت. وحين بلغ فرن التجفيف بالفحم الذي يتم فيه تحميص أصابع الغرافيت، حياة العمال، وقال الزعيم فيه: "**لا بد من تحويل الفرن العامل بالفحم إلى الفرن العامل بالطاقة الكهربائية**".

وأمعن النظر إلى عملية صدور أصابع الغرافيت ببطء من الماكنة، واقفا أمامه، وقال لأبي والعمال: "**إنكم وطنيون مجهولون حقا. إن حل مسألة الأقلام ليست مجرد مسألة روتينية بسيطة بل أنها مسألة سياسية هامة جدا لبناء كوريا الديمقراطية الجديدة بنجاح.**

من جراء سياسة الاستعباد الاستعماري التي مارسها الإمبرياليون اليابانيون، بلغ عدد الأميين في شمالي كوريا وحدها أكثر من ٢,٣ مليون شخص. فمن واجبنا أن نعمل ملايين أطفالنا الغاليين. لكن أكبر المشاكل هي القلم. في الأيام الماضية، كان أبناء شعبنا يعيشون دون أن تتاح لهم فرصة تعلم حتى الحروف الأبجدية، رغم أنهم كانوا يعانون مشقة وعناء لكدحهم حتى تقوس ظهورهم، تحت وطأة الحكم الغاشم من جانب الإمبرياليين اليابانيين. إلا أنهم كانوا يتمنون أن يرسلوا أبناءهم إلى المدرسة بعد إعطائهم الأقلام.

كان ذلك أمنية شعبنا الملحة التي لم تختلف أبدا عن أمنية طول عمر الفلاحين الذين تمنوا لو يحرثون أرضهم الخاصة في بلدهم بملء رغبتهم. يتعين علينا أن نحقق أمنية شعبنا هذه. لا يجوز لنا أن نترك تعليم أطفالنا يتعرض للإعاقة للافتقار إلى الأقلام."

بصراحة القول إن أبي كان غير واثق بمستقبل مصنع القلم الذي أعده ويديره. لكن الزعيم العظيم كيم ايل سونغ الذي زار هذا المصنع أبرزه قائلا إنه وطني مجهول يقوم بالأعمال الحميدة. كما أنه نبهه بأن صنع الأقلام ليس مجرد عمل روتيني بسيط، بل أنه عمل بالغ الأهمية يتوقف عليه مستقبل البلاد وازدهارها، وقاده بلطف على أن يساهم مساهمة كبيرة في قضية بناء الدولة.

بعد ذلك، نقل القائد خطاه وئيدا، وتوجه إلى مكان عملية الاستكمال، حيث تلسع رائحة الصمغ واللك أنوف الناس. لكن الزعيم لم يكن يلتفت إلى تلك الرائحة، ودنا إلى عامل يدهن الأقلام باللك.

تلقى الزعيم بلطف التحية التي يقدمها العامل له، وأخذ أحد الأقلام من كومة تلك الأقلام ذات الألوان المختلفة، وأمعن النظر إليه. وبعد برهة من ذلك، طلب

مطوة قائلا إنه سيبري القلم.

أسرع أبي إلى تقديم المطوة إليه. براه الزعيم، وجرب على الكتابة به على المفكرة. ولكن كتابته بذلك القلم ساءت لقساوة أصبع الغرافيت.

إلا أن الزعيم قال بلهجة سارة: "**رغم أن القلم يشوبه شيء من الشوائب، ولكن الأمر بمجمله ناجح بمعنى أننا نحن الكوريين صنعناه لأول مرة بقوتنا الذاتية**". تطلع أبي إلى ملامح وجهه بعينيه المبللتين بالدموع.

بعد برهات، وضع الزعيم يده بلطف على كتف أبي، وألهمه قائلا: "**يقول مثل بلادنا أن اللقمة الواحدة لا تشبع. يمكنكم أن تصنعوا الأقلام بأفضل وجه، إذا جهدتم باستمرار.**"

بعد أن سمع الزعيم عزم أبي على صنع الأقلام على أفضل وجه فيما بعد، سأله: "**كيف تعالجون بالأقلام المنتجة؟**"

في ذلك الحين، كان التجار في كل المحافظات يشترون بالجملة تلك الأقلام المنتجة فور إنتاجها. بعد أن عرف القائد هذه الوقائع، أعاد سؤاله: "**ماذا بوسع الدولة أن تساعدكم، لإنتاج المزيد من الأقلام فيما بعد؟**"

طلب منه أبي تزويد مصنعه بالشاحنة الواحدة والسماح بقطع أشجار الصنوبر الأحمر في منطقة كانغكي، واستخدام مصنعه مبنى مصنع تخليل اللفت القائم في حارة كيونغريم الذي كان يديره الامبرياليون اليابانيون في الماضي.

بعد أن سمع الزعيم كيم ايل سونغ طلبه هذا، قال: "**إن الدولة ستعد مبنى كبيرا لهذا المصنع، وتزوده بالشاحنة ومختلف التجهيزات مثل الفرن العامل بالكهرباء. كما أنها ستحدد له رقعة قطع الأشجار في منطقة كانغكي، وتحل مسألة الرصاص أيضا، فلا بد لكم من أن تصنعوا عددا أكبر من الأقلام حسنة**

الجودة فيما بعد، وجرب كما تشاء على إقامة منشآت صناعية أخرى أيضا."

في هذا اليوم، أعطى الزعيم تعليمات قيمة لأبي والعمال، وبذل لهم عناية كبيرة، ثم غادر المصنع بعد مضي وقت الغداء كثيرا.

وقف أبي طويلا حتى غابت سيارته عن عينيه، وابتلع شيئا حارا في نفسه.

في اليوم العشرين من فبراير/ شباط عام ١٩٤٦، دعا الزعيم العظيم كيم ايل سونغ إلى عقد الدورة الأولى التاريخية للجنة الشعبية المؤقتة لشمالي كوريا حيث أدرجت مسألة القلم في أول جدول أعمالها.

في الفترة اللاحقة، تحدث الزعيم عن تلك الدورة التاريخية، قائلا إنه يجب المعرفة الواضحة بأن حزبنا كيف كان يجهد لحل مسألة القلم منذ عقب التحرير حتى اليوم، وحين كان يقوم بالنضال المسلح في الجبال، لم يفكر أبدا أن مسألة القلم ستطرح كمسألة حادة الإلحاح بعد تحرير الوطن، وتذكر بتأثر قائلا إن الأقلام كانت بحاجة ملحة لمحو عدد كبير من الأميين عقب تحرير البلاد، لكن الدولة كانت تفتقر إلى مصنع القلم، وفي هذه الظروف، بحثنا مسألة القلم في أول جدول أعمال الدورة بعد أن تأسيس اللجنة الشعبية المؤقتة لشمالي كوريا.

هكذا، كان الزعيم يمنح أهمية كبرى لمسألة القلم الصغيرة، رغم أنه كان مشغولا جدا لبناء الوطن الجديد عقب التحرير.

في تلك الفترة بالذات، أعار أبي اهتمامه لمسألة القلم الصغيرة هذه. ذات مرة، سألت لأبي كيف أعار اهتمامه لمسألة القلم. أجاب أبي عن سؤالي مبتسما، "لأني رأيت مالا فيها".

طبعا، ليس ثمة أصحاب الأعمال الذين لا يرون مالا. أضاف أبي مخضل عينيه قائلا: "حين سمعت كلمة الزعيم العظيم بالإذاعة، التي دعت إلى إسهام

جميع الناس في بناء الدولة بما يتوفر لهم من القوة أو المعرفة أو المال، شعرت بالوضوح أمام عيني، ولذلك، عبرت البحر الهائج مجازفا بالحياة.

في اليوم السادس عشر من يناير/ كانون الثاني من ذلك العام، قال الزعيم العظيم للسيد كانغ ريانغ ووك كبير الأمناء للجنة الشعبية المؤقتة لشمالي كوريا مؤنبا لماذا لم يوزع الشاحنة على مصنع القلم، ولا بد من توزيع الشاحنة على مصنع القلم أولا وقبل غيرها وحتى إذا استحال توزيعها على القطاعات الأخرى."

وبعد وقت لاحق، استدعى إليه السيد كانغ ريانغ ووك مرة أخرى، وطلب منه أن يرسل الشاحنة إلى مصنع القلم حتما في ظرف هذا اليوم، وينقل إلى أبي رجاءه بأن يدير مصنعه جيدا، حتى يرفع جودة القلم، ويزيد من إنتاجه.

حرص الزعيم العظيم على تخصيص غابة الأشجار في جبل أوغا بمحافظة زاكانغ وتوفير الرصاص الأسود في أحد المناجم، وسيارة الشحن الجديدة لمصنع أبي، وتحمل شخصيا كل الاعتمادات المالية لهذا المصنع.

قد أقام أبي مصنع الأقلام هذا لمجرد كسب الأموال، وكان تفكيره على الأكثر هو التبرع بجزء من تلك الأموال للدولة. لم يكن أبي صاحب الأعمال بعيدا عن المال.

ولكن بما أن الزعيم أوجده وأبرزه ووضع ثقته فيه، تحول أبي إلى صاحب الأعمال الوطني حي الضمير الوطني من صاحب الأعمال الذي لا يعرف إلا مالا، وصار يستشرف طريق حياته القيمة الحقيقية بنظرة عينيه التي لم تر إلا مالا، وصار يخطو على طريق الحياة الواسع والمعبد.

سرعان ما صار مصنع بيونغ يانغ للأقلام الذي يقع على ضفة نهر بوتونغ

يغص بالناس الذين يتوافدون كل يوم من أنحاء البلاد. قبل إرسال الأقلام إلى المتاجر، كان الناس يحملوها على ظهورهم بالصرر والمزاود والحقائب، وعادوا مرة أخرى. ازدادت كميات إنتاجها، حتى صار يتكدس ما تم إنتاجه من الأقلام في يوم واحد فقط كجبل.

وبنفس القدر، صارت الأموال أيضا تتراكم. إلا أن أبي حوّل هذا المصنع للأقلام إلى كانغكي، لأنه قرر من حيث مصلحة الدولة، نقل هذا المصنع إلى مكان يوجد فيه الخشب والرصاص الأسود وغيرهما من المواد الخام والأولوية، لعدم نقلها إلى مكان بعيد.

وبدلا منه، أقبل أبي على الصناعة لصنع الأدوات الزجاجية وصناعة المطاط. إذ أنه عرف أن الزعيم العظيم يقلق على نقص المنتجات الزجاجية والأحذية وغيرها من المنتجات الملزمة بإلحاح لحياة الشعب. ولذلك، أقام مصنع الزجاج ومصنع المطاط في سهل بوتونغ. رغم أنهما كانا غير مألوفين له، إلا أنه جمع العمال والتقنيين ذوي التجارب فيهما، وبدأ بالإنتاج.

هذه المرة أيضا، نزل عليه وابل من أمطار المال. هذه الأموال أتت بها الحاجة الملحة إليها، كما ذكرت آنفا. أنجبت الحاجة مالا، وتناسلت منه أموال. كلما توسع الحجم وازدادت كميات الإنتاج، كلما تكاثرت الحاجات.

كان ذلك يعني أن أبي صار يجلس على كومة من الأموال.

إذن، قد يتساءل القراء ألم تكن تلك الأموال الطائلة تعكر عيني أبي مرة أخرى، وألم ترجعه إلى الأيام الماضية، بربط قلبه؟ ...

كان ثمة فعلا شخص جاء إلى أبي ببطاقة الدعوة ذات الوقار العظيم، دعاه إلى الجنوب، سيؤول، ناصحا له أن ينسى ما حدث بالأمس مثل أمر الإدارة

العسكرية الأمريكية باعتقاله، وكان ذلك سوء الظن الناجم عن وشاية أي شخص شرير، وسيصبح رجل مثل السيد سونغ ثريا مفاجئا في الجنوب، فغني ارجو منك أن تشاركني في عملية مرتقبة راسعة النطاق.

لكن أبي رفض ذلك ساخرا منه. رفض أبي ذلك بتاتا، لأنه يعرف جيدا ما هو المال، وما هو وعودهم بالترف والبذخ وما هو ضمانهم لتلك الحياة.

كان لأبي عالم مفتون به، أي عالم الواجب الأخلاقي الذي يجب عليه أن يرد على حبه العظيم وثقته الكبيرة ببذل قلبه. ولذلك، لم يتزعزع أبي حتى في أيام الحرب العصيبة. اختبرت أبي نهائيا تلك المحن الشاقة في الحرب.

القصف الجوي المسعور من طائرات العدو، والتراجع الاستراتيجي المؤقت، ومذابح الأعداء الوحشية...

كان الأعداء يعتقلون ويلقون في السجون ويقتلون دون رحمة كل من أيدوا حكم الشطر الشمالي من كوريا محافظين على عقيدتهم الوطنية وضميرهم، بغض النظر عن المتدينيين أم أصحاب أعمال أم أطباء.

قال الأعداء إن من يتفوه بكلام واحد ضد حكم الشمال سينجو من الموت. حقا كانت تلك هي أيام المحن القاسية التي تمتحن ما لكل شخص من الإيمان والواجب الأخلاقي. كان من واجب كل منهم أن يختار أحد السبيلين. يعني أحده إلى الترف والبذخ والآخر إلى الموت.

إلا أن أبي لم يفكر أبدا في أن اختياره للوطن يكون سبيلا إلى الموت. أيقن بأن النصر سيكون حليفا معه، ما دام الزعيم العظيم باقيا. فإنه ناضل مجازفا بحياته، من أجل الإدلاء بالإسهام ولو قليلا في نيل النصر في الحرب، دعما للقائد العظيم كيم ايل سونغ.

اشترى من حين لآخر الحبوب الغذائية، وسط قصف طائرات العدو، وتبرع بها لمساعدة العمال في المصانع العسكرية ومنكوبي الحرب.

لم يغادر مصنع الزجاج، وسط القصف المعادي القاسي، كيلا يوقف الإنتاج فيه. كان ينتج ما يلزم للجبهة من مختلف أنواع المحاقن وقوارير أدوية الحقن، وملايين لمبات المصابيح الكهربائية، ومن مصنع المطاطا، تدفقت المنتجات المطاطية مثل الأحذية.

في حوالي انتهاء الحرب، نقل أبي مصنع المطاط إلى كايسونغ. قال أبي سبب ذلك:

- وددت نفث الدخان من مدخنة المصنع أمام وجوه الأعداء.

أنظروا، تبقى جمهوريتنا حية، وتتنفس هكذا وسط أكداس الرماد. أنظروا إلى ذلك الدخان الكثيف الذي ينبعث من المدخنة.

هكذا، حين كانت الحرب في أوجها، كان الدخان ينبعث من مدخنة المصنع في كايسونغ.

ماذا فكر العدو يا ترى، حين رؤوا ذلك؟

اعتبر أبي ذلك أحد أكبر مفاخره في طول حياته. فإذا تحدث أبي تلك القصة عن نفث الدخان من مدخنة مصنع المطاط، بعد نقله إلى كايسونغ، قال بصوت منفعل يشبه بالهتاف بعد شد قبضته. لم أر سابقا مثل ذلك الدخان الكثيف المنبعث من مدخنة مصنع المطاط.

ولكن حين أتصور أبي في ذلك الحين، يتراءى أمام عيني مشهد أبي الذي يوقد شعلة إيمانه بحرق كومة من أوراق النقد. تحول أبي من صاحب الأعمال الخاص إلى صاحب الأعمال الوطني الذي أبدى بالواقع إرادة شعبنا الروحية

بإحراق أرباحه المادية.

بعد الحرب، أحال مصنع المطاط ذلك إلى اللجنة الشعبية في مدينة كايسونغ. تحقق هكذا هدف أبي.

قال أبي من حين لآخر بأني لم اعرف صعوبة العمل، وبما أني أيقنت بأن النصر سيكون حليفا معنا، ما دام القائد العظيم معنا، قمت بكل الأعمال بمعنويات عالية.

في فترة الحرب، تبرع أبي بكميات كبيرة من الحبوب الغذائية والملبوسات وغيرها، بتخصيص أمواله الطائلة، مع المبالغ الهائلة لمساعدة الجبهة. فيما يلي قائمة تبرعاته تلك (بقيمة أموال ذلك الزمن).

٣٠٠ ألف واون ـ أغسطس/ آب عام ١٩٥٠

٣٥٠ ألف واون – ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٥١

١,٥ مليون واون – ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٥٢

٣ ملايين واون – أبريل/ نيسان عام ١٩٥٣

الإجمالي : ٥,١٥ مليون واون

كان من ابتهج أكثر بأفعال أبي الوطنية هذه هو الزعيم العظيم. ففي أحد الأيام من أغسطس/ آب عام ١٩٥٣، قابله الزعيم العظيم مرة أخرى. حين قدم إليه تحيته بكل احترام، أمسك الزعيم بيديه قائلا: "**لم أراك طويلا. كم كان عناؤك عظيما في وضع الحرب الشاق**"، وتابع يقول:

ـ سمعت أن الرفيق سونغ داي كوان قد تبرع بالأموال الطائلة التي تتجاوز

ملايين الواونات كأموال مساعدة الجبهة حتى في أصعب ظروف الحرب. حقا إنك قمت بعمل جدير بالثناء والمديح.

حين بقي أبي في حيرة وارتباك من قول الزعيم بهذا الثناء المفرط، سأله بلطف مبتسما كيف استطاع أن يتبرع بتلك المبالغ الكبيرة من الأموال لمساعدة الجبهة كل سنة في ظروف الحرب البالغة الصعوبة.

لسؤاله هذا، عبر له أبي عن إيمانه الوطيد الذي كان ينقشه دائما في قلبه في أيام الحرب العصيبة بقوله التالي:

ـ أيها القائد العزيز، إني فكرت أن ممتلكات الأفراد أيضا لا قيمة لها دون الوطن. بعد أن صرنا عبيدا محرومين من الوطن، ما فائدة مليارات الأموال!

بعد أن سمع جواب أبي، أبدى الزعيم العظيم رضاه الكبير، وقال له بنبرة قوية:

ـ فكرتك هذه عظيمة حقا. بفضل مساعدات مادية ومعنوية كبيرة من أصحاب الأعمال الوطنيين مثل الرفيق سونغ داي كوان وأبناء الشعب في أنحاء البلاد، كان في استطاعتنا أن نحقق النصر في الحرب.

قال أبي إنه شعر في ذلك الحين، كما لو أنه كسب العالم كله. لشدة الانفعال، استطاع أن يسمع حتى صوت نبضان قلبه. لم لا، طالما أبي كسب العالم كله؟ ببذل قلبه الوطني، كسب عالم الحب والثقة العظيمين، ولا يمكن كسبه حتى بآلاف قطع الذهب.

رغم أن أبي رحل عن الدنيا، دون إخبار حقيقة الحياة هذه على الملأ، أنقلها اليوم أنا ابنته لجميع الناس بصوت عال، بدلا منه.

٢- إياك أن ترى وراءك

ليس ثمة في الدنيا عمل سهل. إن النجاح في عمل ما مرهون بكيفية القيام به فقط. أي عمل منفذ على الكره أو بالإجبار يشعر به المرء كعمل شاق، مهما يكن سهلا. لكن عملا مرغوبا به لا يشعر المرء بصعوبته مهما يكن شاقا.

إن الإنسان يجب عليه أن يحب عمله. لا أدري أن حب العمل هو أنسب عبارة، لكني أود أن أقول هكذا. لأن من يحب عمله لا يشعر بصعوبته.

"إياك أن تقولي صعوبة!" هذا قول سمعته حتى تظهر التآليل في أذني منذ أيام صغرى.

ربما سمعت هذا الكلام لأول مرة، حين كنت ثامنة من عمري. في ذلك الحين، ألحقني أبي بصف الرقص في معهد بيونغ يانغ الفني الوحيد في بلادنا، بإضفاء سنة على عمري.

في ذلك الحين، اشترك طلبة معهدنا أيضا بالمساعدة في الملحمة الغنائية والراقصة "وطننا المجيد"، وكانت ترشدنا الراقصة المشهورة تشواي سونغ هوي بشدة الصرامة وإلى حد القسوة.

إذا كنت أرقص طول النهار، فإن جسمي انهار تماما مثل أوراق الملفوف المسلوقة لشدة التعب والإعياء.

في كل مرة من ذلك، اعتاد أبي على القول متكررا: "إياك أن تقولي صعوبة". لا أدري أن ذلك هو قول مركز فيه تجارب ودروس طول حياته، مثل

مقولة يعرفها جميع الناس في العالم "من لا يعمل لا يأكل".

في الواقع إن أبي كان يحب العمل. لا يعرف أي شيء إلا العمل. ربما يعني ذلك أن العمل هو أكثر ما يحبه. إذا كنت أتذكر طول حياته، فيما أنا أكتب الآن هذه المذكرة، فإني أحس بأن أكثر فترات المحن قسوة بالنسبة له كانت أيام الحرب، وأكثر الفترات صعوبة وشقاء كانت أياما بعد الحرب.

على نقطة انعطاف المصير

دمرت كل الأشياء ولم تبق إلا أكوام من الرماد. أصيبت المصانع التي كان أبي يديرها بالخراب التام. إن الحرب التي دامت لثلاث سنوات حولت جميع الأشياء على هذه الأرض إلى الأنقاض. كان جمع الطوب لبناء جدران المبنى والمدخنة والسقف وتبييضها لم تكن مشكلة.

كان أهم شيء هو إنعاش الآلات والتجهيزات. لكن الحصول على أحد المولدات والمحركات كان أمرا يفوق التصور في ظروف خراب كل المصانع والمؤسسات في أنحاء البلاد.

إلا أن أبي كان مختلفا عن الآخرين في تفكيره الجديد بصاحب الأعمال. سمع أبي شائعة أن عديدا من سفن العدو قد غرقت في مياه البحر قبالة واونسان في زمن الحرب. فإن أبي بدأ بالتدريب على السباحة في نهر دايدونغ كل يوم. منذ الصباح، توجه إلى النهر بصرة من الغذاء، وظل يسبح في الماء، فيما هو يطبش ويغطس في الماء حتى غروب الشمس.

في ذلك الحين، كانت مدينة بيونغ يانغ كلها تغلي بإعادة البناء لما بعد الحرب. كان الناس يركضون حاملين على ظهورهم كمية كبيرة من الطوب. لكن

صاحب المصنع هذا الذي ذاع صيته كان يسبح مطرطشا في الماء طول النهار، فكم كانت دهشتهم عظيمة، حين رأوه. وأكثر من ذلك، كانوا يعرفون أنه لا يعرف شيئا إلا العمل. فإنهم راحوا يتهمسون قائلين إنه أصيب بالجنون من دون شك. فإذا لاقاه الجيران ممن كانوا يتبادلون التحية بترحاب كل صباح ومساء هم الآخرين بقوا محيرين تطرف عيونهم دون أن يعرفوا كيف يتصرفوا أمامه.

ولكن أبي كان يتردد باللباس الغريبة منذ أيام. كان بينها شيء يشبه بخوذة القواد العسكريين في الحكايات القديمة، والملابس المصنوعة من المطاطا والجزمة الثقيلة.

كان يتردد على نهر دايدونغ حاملا على ظهره تلك الأشياء الثقيلة.

فانتشرت شائعات غريبة عنه. قال بعض الناس الحساسين إن أبي قد أخفى قطع الذهب في مياه نهر دايدونغ في زمن الحرب دون أن يعرف الآخرون ذلك السر، لكنه يسعى الآن منزعجا لعدم إمكانيته من العثور عليه. وانتشرت على نطاق واسع شائعة سخيفة بأن صاحب العمل سونغ داي كوان قد ألقى عشرات الكيلوغرامات من سبائك الذهب في المقربة من ملتقي نهري دايدونغ وبوتونغ. لكن أبي لم يلتفت إليها، وظل يتدرب على السباحة وحتى الغواصة لأكثر من ١٥ يوما، ثم غادر إلى واونسان. قد يتساءل القراء لماذا كان يسعى لدخوله بوحده في المياه، دون استخدام الغواصين. إن السبب في ذلك بسيط. كان أبي الصناعي ملزم بأن يتأكد بعينيه ما هو قابل للاستخدام وما هو قابل لإخراجه من المياه من الأشياء الباقية في السفن الغارقة في زمن الحرب. سمعت أنه عانى عناء كبيرا لأكثر من ١٥ يوما آخر في البحر قبالة واونسان. للغواصة في البحر لأول مرة في حياته، كان الدم ينزف من أذنيه أحيانا. أخيرا عثر على المعدات الملحة،

وتأكد من مواقعها. عبأ الغواصين والزوارق العاملة بالمحركات. من تلك الأشياء التي تم إخراجها من البحر، كان أكبر الأشياء حجما وقيمة هو مولدات. ولنقل تلك الأشياء إلى بيونغ يانغ، بدأ أبي بالمشي على قدميه بالمسطرة الخشبية الطويلة، بالاتكاء عليها كعكاز. كان من واجبه أن يقيس ارتفاع كل نفق من الأنفاق القائمة على المسافة المؤدية من واونسان إلى بيونغ يانغ. كان يقيس ارتفاع صندوق الشاحنة (يختلف ارتفاعه حسب نوع الشاحنات) وارتفاع الآلات والتجهيزات المحمولة عليها ولا سيما محركات كبيرة، وارتفاع كل نفق من الأنفاق من أرضها إلى سقفها، وسجل كل الأرقام في السجل. وكان النفقان وحدهما معلقين، وللمرور بهما، قرر أبي أن يختار شاحنة مناسبة، ويقلل ارتفاع أخشاب الاستناد إلى حد ما. هكذا، جاء إلى بيونغ يانغ، بعد أن قطع عشرات الكيلومترات من المسافة ماشيا على قدميه. كم كان الناس مصعوقين، حين رأوه يظهر بوجهه المسود باللحية المشبهة بفرشة الحذاء وفمه المشقوق الذي يسيل منه الدم وقدميه المتورمتين والممزقتين. وبذلك المشهد المريع، كان أبي يضحك بصوت عال، مما يزيد دهشتهم.

هذه الآلات والمعدات التي نقلها على هذا النحو كانت قيمة بما لا يمكن وجوده في أي مكان. على ذلك، انتعش المصنع بسرعة. هذه المرة أيضا أصبحت مشاريع أبي تزدهر بسرعة، وتجاوزت مستوى مسبقا. وبنفس القدر، ازدادت الأموال.

إنني أود أن أنوه بأن ازدياد أموال صاحب الأعمال الخاص في الوضع الاقتصادي الصعب لما بعد الحرب صار مساعدا كبيرا لمعيشة الشعب وإعادة بناء الاقتصاد المدمر أيضا. ولكن كان ثمة من لم يروا كذلك. أما ذلك الحين فهو

زمن ينصرف فيه عمل هادف لإعادة تحويل التجارة والصناعة الرأسماليتين على النهج الاشتراكي بخطى حثيثة. كان معظم أصحاب الأعمال والتجار ينتهكون مصالح جماهير الشعب العاملة بمختلف الوسائل والطرق. فقد اشتروا الفواكه واللحوم وغيرها بأسعار منخفضة من الأرياف، وباعوها بأسعار مرتفعة، وكان بعض أصحاب الأعمال يقومون بأعمال الغش والاحتيال مثل بيع منتجاتهم للتجار الفرديين بأسعار باهظة دون بيعها للدولة.

حتى إن بعض أصحاب الأعمال كانوا ينهمكون في إشباع مصالحهم الخاصة باستخدام كل الوسائل والطرق، بالتواطؤ مع العناصر الشريرة التي تسللت إلى أجهزة السلطة، وفي النهاية، كانوا يحافظون على دفاتر الحسابات السرية، وخدعوا بها الدولة، ولم يدفعوا الرسوم والضرائب لها. كانوا يتهربون من انضمامهم إلى تعاونيات الإنتاج فيما هم يلجؤون إلى أعمال المضاربة والغش، مستفيدين أساسا من وسائل الأسعار.

في أبريل/ نيسان عام ١٩٥٦، طرح الزعيم العظيم كيم ايل سونغ خطة تحويل التجارة والصناعة الرأسماليتين على النهج الاشتراكي حسب متطلبات تطور الثورة، في المؤتمر الثالث لحزب العمل الكوري.

ولذلك، لم يكن من أمر غريب أن يكون ثمة من كانوا يرون بنظرة التحامل نشاطات أبي لإدارة المشاريع الخاصة. هز بعض الكوادر رؤوسهم متشككين وهم يقولون إن أبي الذي تلقى عناية أكبر من أي شخص آخر من الزعيم العظيم على صعيد إدارة المشاريع منذ عقب التحرير حتى ذلك الحين كان من واجبه أن ينضم إلى تعاونية الإنتاج أولا وقبل الآخرين، وفاء لخطة الحزب للتحويل الاشتراكي، إلا أنه لا ينضم إليه بعد. فكيف يستطيعون أن يفهموا ذلك.

بعد أن تلقى الزعيم العظيم تقريرا عن هذه الحقيقة، أرسل أحد الكوادر العاملين في اللجنة المركزية للحزب إلى المصنع الذي يديره أبي، في أحد الأيام من أواسط شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٥٧، ليطلع على الوقائع، وفي وقت لاحق، أعطى بخصوص أبي تعليمات بما معناها:

... قد تتشككون فيما إذا كان رجل يجدر به أن ينضم إلى التعاونية أولا وقبل غيرهم، لا ينضم حتى الآن إليها، منهمكا في إدارة المشروع الخاص. بعد الحرب، دفع حزبنا بهمة تحويل التجارة والصناعة الخاصتين على النهج الاشتراكي، إلى جانب نشر التعاون في الريف.

لكن التجارة والصناعة الخاصتين تختلفان عن الاقتصاد الريفي الخاص، من حيث تنوع أنواع عملهما، ولذلك، يختلف من ينضمون إليهما أيضا من أحد لآخر من حيث أوضاعهم الاجتماعية وأسسهم الاقتصادية ومستوى وعيهم الفكري. ولهذا السبب، اضطر حزبنا إلى تحديد الأشكال الثلاثة لتعاونيات الإنتاج التي تتناسب مع واقع التجار والصناعيين في بلادنا.

لكن الرفيق سونغ داي كوان لم يستطع أن ينضم إلى الشكلين الأول والثاني وحتى الشكل الثالث أيضا، على ما سمعت. لأن الشكل الأول هو التعاونيات التي ينضم إليها أساسا التجار والصناعيون متدهورة أحوالهم، حتى لا يتناسب معه وهو الذي يملك بعض الأملاك، والشكل الثاني بما هو الشكل شبه الاشتراكي الذي يتم فيه توزيع الأرباح حسب نوعية العمل وكميته المنجزة، مع حساب حصة الأموال المخصصة، ففي هذا الشكل، ستكون الحصة الموزعة على الرفيق سونغ داي كوان أكبر من غيرهم، وستقل للأشخاص المنضمين إليه بأيد فارغة، ولذلك، لم يسمح ذلك لضميره، حتى لم ينضم إليه أيضا.

أما الشكل الثالث فهو شكل اشتراكي تماما تصبح فيه كل وسائل الإنتاج والأموال ملكا مشتركا للتعاونية، ويتم التوزيع حسب نوعية العمل المنجز وكميته. ولذلك، لم ينضم إليه التجار وأصحاب الأعمال الخاصون غير المستعدين سياسيا بكل سرور منذ البداية.

كان بوسع الرفيق سونغ داي كوان أن ينضم إليه منذ البداية، لكنه لم يكن باستطاعته أن يدير التعاونية لوحده. واستطرد الزعيم العظيم قائلا إن أبي بادر من جانبه قبل الآخرين إلى تقديم كل الأموال ووسائل الإنتاج الخاصة إلى الدولة دون أي تعويض، حين طرح حزبنا خطة التعاون، لكني حرصت على إعداد التحضيرات اللازمة لإدارة تعاونية الإنتاج بحجم كبير نسبيا، في حالة انتقاله إلى شكل عال، مع إدارة الصناعة الخاصة مؤقتا، وذلك بأخذ تأثيره في التجار وأصحاب الأعمال الآخرين بعين الاعتبار.

في ذلك اليوم، أثنى ثناء عاطرا مرة أخرى على أبي قائلا إن أبي أدلى بإسهام في تغطية حاجات الحرب بإنتاج المحاقن وقوارير أدوية الحقن وغيرها في زمن الحرب، وحين أدخلت طريقة تربية شتلات الأرز في المساكب الباردة في الريف، أقام أبي مصنع الورق، وأنتج ووفر ما يلزم لها من الأوراق الزيتية لمساكب تربية أشتال الأرز، كما أنه ساعد بناء الاشتراكية بهمة بإنتاج مختلف أنواع المنتجات الزجاجية.

بعد أن سمع أبي تعليمات الزعيم العظيم هذه، أحس مرة أخرى بسعادة صاحب الأعمال الذي يعيش في كنف الزعيم العظيم، وعقد عزما جديدا في نفسه كما يلي:

في زمن ما، اعتزمت على الإسهام في بناء الدولة بكوني "رجلا مالكا

للمال"، لكنني أصبحت الآن "رجلا مالكا للقوة" فضلا عن "الرجل المالك للمال". كلما تحسن عمل مصنعي، يمكنني أن أدعم غايات الزعيم بصورة أفضل. يجب عليّ أن أعمل وأعمل بمزيد من القوة. لا بد لي أن أشكل تعاونية إنتاج المنتجات الصناعية في بيونغ يانغ في أقرب وقت ممكن، لأساهم مساهمة كبيرة في بناء الاشتراكية.

أخيرا، شكل أبي هذه التعاونية، وعند تشكيلها، خصص خمسة ملايين واون من أمواله، وفي الفترة اللاحقة، دفع هذه الأموال المخصصة كلها للدولة دون أي تعويض.

هكذا، حول أبي مصيره، حتى صار عاملا اشتراكيا يتفانى للوطن والشعب، من صاحب الأعمال الخاص، وخطا خطوة كبيرة أخرى إلى الأمام. لكن تلك الخطوة الكبيرة لم تكن تحدث تلقائيا، دون أي تقلبات.

في الحقيقة إن أبي فكر من كل النواحي، حين دفع للدولة كل أمواله المخصصة التي تقدر خمسة ملايين واون. كانت تلك الأموال هي آخر ملك أبي. لم يكن يبقى على فلس واحد منها له.

حتى الآن، تبرع أبي بملايين الواونات من ضمن المعونة المالية، لكنه كان يبقى على رصيد لازم لإدارة مشروع جديد. لكن هذه المرة، انتهى نشاطه لإدارة المشروع الخاص، بما أنه انضم إلى تعاونية الإنتاج وهي شكل الاقتصاد الاشتراكي. هذا يعني أن رصيده المالي الخاص لم يكن ملزما له. إلا أن لأبي سبعة أبناء وبنات. ولم لا ترد إلى ذهنه رغبة في تخصيص حصة من أمواله لكل منهم. مما لا شك فيه أنه أيضا أراد أن يزودهم عند الزواج بالمفروشات والأدوات المطبخية الملزمة بإلحاح في بناء أسرة جديدة على الأقل ولو لا

رصيدا كبيرا. طبعا إن ذلك ليس أمرا جنائيا، بل إنه تفكير ملزم لجميع الآباء.

بخصوص ذلك، صارح أبي ما كان يقض مضجعه، حين ألقى كلمة في المؤتمر الوطني لنشطاء الصناعات المحلية وتعاونيات الإنتاج، الذي عقد بصحبة الزعيم العظيم في منتصف أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٥٩، قائلا:

"كنت أنهمك في الاشتراكية نهارا في التعاونية، بكوني رئيسا لمجلس إدارتها، لكني كنت منهمكا ليلا في الرأسمالية، فيما أنا أتضور ألما بشأن أموالي المخصصة التي تقدر ملايين الواونات. إلا أنه حين دفعت هذه الأموال كلها للتعاونية، شعرت بخفة كتفيّ الثقيلتين بآلاف الأطنان، كما لو أني أستطيع أن أطير إلى السماء."

بعد أن سمع الزعيم العظيم كلمة أبي، أثنى عليه ضاحكا بصوت عال، وهو يقول **"إن الرفيق سونغ داي كوان أحسن صنعا جدا، حين دفع أمواله المخصصة للتعاونية"**.

وصفق له أولا وقبل الآخرين. وإذا بالقاعة تتموج وترج بالتصفيق المدوي كالعاصفة. حقا كان ذلك ثناء عاطرا لأبي الذي سلك طريق الوطنية طول عمره، وتبريكا لطريق حياته الصادقة التي سيسلكها.

لم يشعر بصعوبة عمله رغم أنه كان صعبا. ولذا فإن أبي قال دائما أبنائه وبناته ضرورة حب العمل دائما. إذا أحبوا العمل فإنهم لن يشعروا بصعوبته، وإياكم أن تقولوا صعوبة العمل.

في غضون ذلك، طرأ تغير على حياة أبي. إنه أقلع عن شرب الخمر فجأة.

أصلا إن أبي كان يشرب الخمر بالقصف. كان مولعا بشرب الخمر إلى حد تسميته "بالسكير"، لكنه لم يكن له ندماء يذكرون.

كان لذلك سبب وجيه. كلما صار مسكرا، قلّ كلامه. حين رآه المشاركون في الشراب يبقى جالسا متجهم الوجه ومحكم الفم كما لو أنه غاضب، شعروا بالانزعاج، حتى غادروا المكان بسرعة.

بدا لي أن الندماء لم يكونوا له لذلك. ولكن أبي لم يحب سكاري رغم أنه سكير. حتى إذا دعاه أحد لشرب الخمر فإنه لم يلب على دعوته. ولكن إذا زاره الضيوف كان يجلس معهم أمام مائدة الشرب. قيل إن السكير الحقيقي لا يشرب بوحده، لكن أبي كان يشرب بوحده أيضا كما يشاء دون مضايقة.

إقلاع أبي السكير هذا عن الشرب كان أمرا لا يمكنني أن أفهمه. بدا لي أن السبب الوجيه في ذلك لم يكن له. ومنذ ذلك اليوم، قلت عودته إلى البيت. كان يفحص بنفسه بدقة تنظيم الإنتاج وإمداد اللوازم والبيع وحتى دفتر الحسابات.

في أحد الأيام من غضون ذلك، ربما كان ذلك عاما بلغ عمري تاسعا. في ذلك الحين، كنت طالبة أصغر قامة وعمرا في صف الرقص من معهد بيونغ يانغ الفني، لكني شاركت مشاركة مساعدة في الملحمة الغنائية والراقصة بعنوان "وطننا المجيد"، وتشرفت بالمشاركة في هذا العرض الفني الذي قدم على خشبة المسرح بحضور الزعيم العظيم. بعد انتهاء العرض، صعد الزعيم العظيم على خشبة المسرح، ليهنئ بالنجاح في العرض الفني، وضمني في صدره بحنان.

في ذلك اليوم، سمع أبي حديثي هذا، ولشدة السرور، طلب إعداد مائدة شرب الخمر.

كان بوسعنا أن نفهم سبب طلبه للخمر فجأة، رغم أنه أقلع عنه منذ عدة أشهر. ولكن حين جلس أمام مائدة الخمر فعلا، دفع زجاجة الخمر إلى الجانب. وبدلا من ذلك، دعا إخوتي وأنا إلى جانبه، واسترسل في التلقين لنا، وأمسك

فجأة عن كلامه، واستغرق في التفكير العميق لبرهات، وسأل لنا بغتة: "ألا تشعرون بالخجل بسبب أبيكم هذا؟" في تلك اللحظة، كنت محيرة، متسائلة في نفسي ما معنى خجل بسبب أبينا. أبي هو رئيس مجلس الإدارة.

كنا نحن الإخوة ومن ضمنهم أنا قد بقينا صامتين. لكن أخي الأكبر (سونغ سونغ سام) أحنى رأسه.

في ذلك اليوم أيضا، سهر أبي ليلا في التعاونية منهمكا في العمل. في الوقت اللاحق، عرفت أن أبي كان يحمل في عبه طلب انضمامه إلى عضوية الحزب حينذاك.

كان يود أن يقدمه إلى منظمة الحزب، لكنه تردد طويلا. في الواقع أنه أقلع عن شرب الخمر، منذ اليوم الذي كتب فيه طلب انضمامه إلى الحزب. هكذا كان ينهمك في العمل وحده، بعد أن أقلع حتى عن شرب الخمر الذي كان أشد ما يولع به.

كيف استطاع صاحب الأعمال الخاص السابق أن يحفظ في صدره طلبه للانضمام إلى الحزب، ذلك لأنه أدرك من خلال تجارب حياته الطويلة أن الحزب هو الزعيم بالذات، وإذا أراد أن يدعم بصورة أفضل غايات الزعيم العظيم الذي أنقذ مصيره وقاده إلى طريق الوطنية الحقيقية فلا بد أن يغدو عضوا للحزب. وعلى الأخص، كلما رأى أعضاء الحزب يجتمعون في الجلسة الواحدة، في كل مرة طرحت فيها المسائل الهامة، وحين عرض عمل صعب يواجهه أعضاء الحزب قبل الآخرين، وطد أبي الذي لا يعرف إلا عملا عزمه على عدم تأخير انضمامه إلى الحزب أكثر من ذلك، وود لو يظهر مظهره الجديد أمام أولاده.

في ربيع عام ١٩٦٤، حين عرف الزعيم العظيم أن أبي يريد أن ينضم إلى صفوف الحزب، من خلال الكوادر، أوصاهم بأن يضموه سريعا في الحزب.

في يوم منح بطاقة عضوية الحزب، كان أبي ينتظر دوره مع عديد من الشباب في غرفة الاستقبال من لجنة الحزب في الحي. في الوقت اللاحق، قال لي أبي أن الفتيان كانوا يتهامسون فيما بينهم، وهم يسترقون النظر إليه، وبدا له أنهم يهزؤون به متسائلين في أنفسهم أن هذا الأب ينضم في عمره المتقدم إلى الحزب الآن.

لكن أبي شعر حينذاك بفخر نفسه، وود لو يراه جميع الناس في الدنيا.

في مساء ذلك اليوم، عاد أبي إلى البيت، وجمع أولاده، وقال لهم: يا أولادي، تلقيت اليوم بطاقة عضوية حزب العمل الكوري الذي يقوده زعيمنا. من اليوم فصاعدا، تكونون أبناء وبنات عضو حزب العمل الكوري، لا أبناء وبنات صاحب الأعمال الخاص. يعني أنكم أبناء وبنات ثوري. فإذا سئلتم، فمن واجبكم أن تفاخروا رافعي رؤوسكم بأن أبينا هو عضو حزب العمل الكوري.

عضو حزب العمل الكوري، لم أعرف في ذلك الحين مدى فخر وقيمة التسمية به. لم أكن أستطيع أن أعرف معناه الحقيقي في عمري الصغير حينذاك. كنت مجرد مسرورة مسرورة لأن أبي وأمي وإخوتي وأخواتي كلهم كانوا مسرورين.

بعد مرور عشرين سنة من ذلك، سألت لأبي: يا أبتي، كيف أعمل، لكي أصبح عضو حزب العمل الكوري؟ حينذاك، شعر أبي بصعوبة الجواب، وقال بهدوء كما يلي:

- أراك تعملين الآن بجد واجتهاد. أرى أن ذلك هو الجواب على ذلك.

أجل، ليس ثمة جدول أو قائمة محصلة عملية أو دفتر الأجوبة الخصوصية

على ذلك السؤال. ذلك لأنه ليس أي نوع من الصيغة. إن الجواب على ذلك هو العمل بدأب ومثابرة، باذلا ضميره فعلا.

عمل أبي على هذا النحو. قد تبرع بكل الأموال التي كسبها، وبذل ضميره أيضا. كان يعمل بدأب وإخلاص من أجل الوطن والشعب وحدهما، دون طمع لأي شرف أو منصب.

وبنتيجة ذلك، أصبح أبي الذي ظن الكثير من الناس زمنا ما أنه رأسمالي – صاحب الأعمال الخاص الذي يكون هدفا للتصفية، يدخل في صفوف "المناضلين الطليعيين الواعين". بعبارة أخرى، أصبح صاحب الأعمال بالأمس وطنيا. في ذلك الحين، قال أبي ما يلي، متذكرا زملاءه وأصدقاءه الذين كانوا يعملون معه في الأيام الماضية:

- أود أن أفاخر بصوت عال أن سونغ داي كوان هذا أصبح عضوا لحزب العمل الكوري. أود أن أفاخر صائحا بالفضائل المشكورة التي يبذلها زعيمنا وحزبنا اللذان يبرزان ويمجدان كل من يساعد ولو قليلا للوطن، كائنا من كان.

منذ ذلك الحين، تغير أبي من حيث طريقة عمله أيضا، ليس بكونه رئيسا لمجلس الإدارة فقط بل لأحد الكوادر الإداريين الحزبيين. بعبارة أخرى، تغير مظهره مرة أخرى.

تكون ثمة إحدى القصص التي تبين مدى فخره وشرفه لحمل حياته السياسية القيمة لعضو حزب العمل الكوري.

بناء على قول أختي الكبيرة (سونغ سونغ سوك) التي كانت تنقل العشاء لأبي، قد رأت أبي واقفا بوحده أمام لوحة الأخبار السريعة الواقفة في فناء المصنع، حين لم يكن ثمة أي شخص لهبوط الليل. حين صاحت أختي "يا أبتي"،

صعقته الدهشة. وحين عرف أن ابنته جاءت بعشائه، دخل مكتبه مبتسما. لكنه تناول العشاء قليلا، وأعاده لأختي قائلا أن تعودي سريعا. لكن أختي تأخرت إلى حد ما في مدخل المصنع، وهي تتبادل الحديث مع الخفير العجوز، ورأت أباه واقفا مرة أخرى أمام لوحة الأخبار السريعة.

صاح الخفير العجوز ضعيف البصر "من يكون هناك؟".

حينذاك، اختفى أبي بهدوء بين الظلمة. لفضول كبير، اقتربت أختي من اللوحة وتأملتها، وإذا بها رأت فيها نشرة خبر سريع كتب فيها اسم أبي ومأثرته بحروف بارزة قائلة "إن الرفيق سونغ داي كوان رئيس مجلس الإدارة الذي حمل حياته السياسية القيمة لعضو حزب العمل الكوري يعمل بجد نهارا بالليل لصنع المجلخة الآلية باختراعه".

كان أبي يتأمل ثم يتأمل تلك النشرة. أبي الذي كان يجلس على منصة الرئاسة في كل اجتماع من الاجتماعات، وحينا ألقى كلمة على منصة المؤتمر الكبير أيضا، لم ينقل خطوته عن ورقة ذلك الخبر السريع، لشدة افتخاره. كانت تلك الورقة الواحدة أكثر فخرا بالنسبة لأبي الذي كان يود أن يخبر العالم كله شرفه وسعادته بكونه عضوا للحزب.

حتى في شيخوخة عمره

منذ عام ١٩٦١، تحولت الجمعية التعاونية التي كان أبي يعمل رئيسا لها إلى الجمعية التعاونية لإنتاج زجاج البصريات، التي تتخصص بإنتاج عدسات النظارات ومختلف أنواع العدسات ومنتجات الزجاج.

أحد الأيام من أوائل مارس/ آذار عام ١٩٦٩، دعا الزعيم العظيم أحد

الكوادر في اللجنة المركزية للحزب بالهاتف، وقال له أن أعضاء الحزب القدماء يريدون القراءة، لكنهم لا يجدون نظارات التكبير، وليس ثمة مكان إنتاج النظارات وعدسات التكبير ولا محل بيعها، وطلب منه أن يذهب إلى الجمعية التعاونية لإنتاج زجاج البصريات، ليدقق كميات احتمال إنتاج النظارات وعدسات التكبير، وماذا ينقصهم وماذا يجب حله لإنتاج النظارات، وفي حالة حل كل ذلك، كم عدد النظارات يمكن إنتاجه.

حين تلقى أبي تعليماته المشربة بحبه الحار وثقته الكبيرة به، شعر بتبلل عينيه بالدموع، وفي الوقت ذاته، شعر بوخز ضميره أيضا. كان من واجبه أن يعير اهتمامه اللائق بالنظارات التي يطلبها الشعب بإلحاح، طالما أن جمعيته هي الجمعية التعاونية لإنتاج البصريات. لكن أبي الحساس أكثر من غيره بالرواج لم يعر اهتمامه اللائق بهذه النظارات.

طالما أن تعاونيته تسمى بتعاونية إنتاج زجاج البصريات، كان من واجبه أن يولي اهتماما لائقا بالنظارات التي يحتاج إليها الشعب. لكن أبي الذي كان أكثر حساسية من غيره بالرواج لم يول اهتماما لائقا بالنظارات.

في ذلك الحين، كانت السيارات والجرارات والبلدوزرات والحفارات والقاطرات الكهربائية تتدفق كسيول في المصانع والمؤسسات في أنحاء البلاد، بحيث صار من اللازم إزاحة بوابتها القديمة والضيقة وبناء بواباتها الكبيرة الجديدة في أماكنها.

كان الحديد المصهور يغلي في الفرون الكهربائية، وتنطلق أساطيل الصيد الجديدة إلى البحار، وتطلق المكابس بطاقة آلاف الأطنان قدرتها. ولذلك، لم يول أحد اهتمامه بمثل نظارات. وفي ذلك الحين، كانت النظارات تعتبر تافهة

وثانوية. وكان بعض الناس يعتبرون من يلبسون النظارة كمن ينقصهم شيء. انطلاقا من هذه النظرة البالية، كان لابسو النظارة يسمون "بأبي نظارة" أو "ماسك نظارة"، بعبارة دنيئة.

لكن هذه النظرة تغيرت تماما اليوم. كان الشيوخ وضعفاء البصر وغيرهم من الناس كبارا أم صغارا يلبسون النظارات لحماية عيونهم، وحتى النساء صرن يعتبرنها كزينة إبراز جمالهن وكأحد أحب مقتنياتهن.

بعد أن تلقي أبي التعليمات الملحة التي ألقاها الزعيم العظيم، ضرب صدره بقبضته، قائلا في نفسه إني ما زلت بعيدا عن الوفاء لغايات الزعيم الرفيعة. فكتب في أول صفحة من صفحات مفكرته تعليمات الزعيم التالية:

"في بلادنا كثير من الناس الذين يلزمون للباس النظارات.

... حين زرت الريف، فإن الشيوخ يحرجونني كثيرا لمسألة النظارة. حين توجهت إليهم لابسا بالنظارة، فإنهم يسألونني أين اشتريتموها، يا رئيس الوزراء المحترم، ويطلب مني أعضاء الحزب نظارات قائلين إننا كنا نعمل دون نظارات سابقا حين قمنا بالإصلاح الزراعي، ولا نستطيع أن نعمل الآن دون نظارات. قد شاخ أعضاء حزبنا، حتى يقولوا هكذا، فلا بد لنا أن نحل مسألة النظارات لهم..."

حقا إن زعيمنا كان دائما بين الشعب ويشاطره السراء والضراء، ويعمل دائما من أجله، حتى قال هكذا معبرا عن رجائه الملح. لذا فإن أبي نقش دائما في قلبه قوله هذا الذي يظهر ملامحه الحنونة وشيمه الجليلة، وركض وركض دون أن يعرف فرقا ما بين الليل والنهار، لتنفيذ تعليماته هذه، فيما هو يحصل على المعدات ويجمع التقنيين اللازمين.

في غضون ذلك، أرسل الزعيم العظيم إليه التقنيين الأكفاء والمعدات القيمة أيضا. هكذا، وفر الزعيم العظيم هذه المرة أيضا رصيد المشروع الجديد. فإن أبي أجرى الإنتاج على نطاق واسع بمعنويات مضاعفة. لشدة دورانه مشغولا في ذلك الحين، لم يكن يولي اهتماما بمسألة مستقبل بنته الصغرى التي كانت أحب إليه. لقد ذكرت في الأعلى أن أبي أراد أن يربي بنتها الصغرى كفنانة. في بداية الأمر، كان يتصورني راقصة ترقص كفراشة الزهور على خشبة المسرح الكبير، وأكون مدفونا وسط العاصفة من التصفيقات وباقات الأزهار. لم يكن أبي يرى أن جسم بنته الصغرى يتوسع إلى الجانبين. لكنه عرف أنها ليست واعدة بكونها راقصة، حين جاء إلى المدرسة. ولذلك حرص على انتقالها إلى صف الموسيقى. فقد استدعى إلى بيته لي يونغ سو، عازف الكمان الجهير في الأوركسترا السيمفونية الوطنية (أشهر عازف في بلادنا في ذلك الحين) كل مساء، ليعلمني فرديا. هكذا، كان مجدا لمستقبل بنته الصغرى. لكنه لم يول اهتماما بي، رغم أني صرت على وشك التخرج من معهد بيونغ يانغ الفني. ربما لأنه كان مطمئنا علما بأني أكون في المرتبة الأولى دون منازع في العزف على الكمان الجهير، بفضل تلقي حتى تعليم منفرد. ذات مرة قال لي بكلام عابر إنك ملزمة بالدخول إلى المعهد العالي للموسيقى. أ ليس كذلك. لكني هززت رأسي رفضا. كان هذا الجواب أمرا مفاجئا بالنسبة لأبي. لكن أبي لم يعبر عن دهشته. ربما لم تتاح له فرصة الدهشة.

في ذلك الحين، كان يدور مشغولا ليلا بالنهار، لبلوغ هدف إنتاج مليون نظارة في سنة واحدة. فإن جل همه كان لإنتاج النظارات دائما. ولذلك، ربما أخطأ في سمعه لجوابي المرفوض لكلامه كما لو أنه موافقتي.

حقا إن أبي كان يقبل على أي عمل يريده الزعيم العظيم بعد إرجاع كل الشؤون إلى الوراء. كان ذلك الجو في عمله أشد منذ نال شرف عضو حزب العمل الكوري.

بعد مضي شهر من ذلك، سألني عن كيفية دراستي في المعهد العالي. هذه المرة أيضا سألني بكلام عابر دون أن يهتم بأمري، فيما هو يملأ دفتر جيبه بالأرقام المجهولة. أجبت عليه أنها لا بأس بها.

كان جوابي على سؤال أبي مبهما ولم يكن سليما. لكن أبي لم يسأل أكثر من ذلك، بل إنه ما برح يكتب. ومضى شهر آخر من ذلك. ولا أدري أن أكثر من ذلك قد مضى.

كان ذلك في غضون بلوغ هدف إنتاج مليون نظارة في تعاونية أبي لإنتاج زجاج البصريات.

في ذلك الحين فقط، عرف أبي أني أدرس في مدرسة موران العالية المتخصصة للطب. بدا لي أنه كان مصعوقا.

- ألا تدرسين في المعهد العالي للموسيقى؟ ألا تعزفين على الكمان الجهير؟

شرحت له مبتسمة عن السبب في تغيير اختصاصي. كان ذلك سببا غريبا وسخيفا، حين قلت له:

- تصور يا أبتي مشهدي أنا أعود من العرض الفني في بلد آخر بعد أن صرت عازفا ماهرا على الكمان الجهير. سينفجر الناس ضاحكين بمجرد رؤيتي أنزل بالجسم الممتلئ كجرة من مصعد الطائرة بين الفنانات الحسان ذوات القوام النحيل كأوراق الصفصاف. أشعر بالقشعريرة بمجرد تصور مشهد هذا.

بعد أن سمع أبي جوابي، صعقته المفاجأة. أطلق من فمه صوت غريب يشبه

بشبه ضحكة، ولحس لسانه بمرارة وقال:

- أنتم جميعا تتخصصون بالطب هكذا. أ ليس كذلك.

في ذلك الحين، لم أفهم لماذا شعر أبي بالأسف هكذا. في الفترة اللاحقة كثيرا بالذات، عرفت ذلك السبب، وندمت كثيرا على تفويت عشر سنوات.

توجه أبي توا إلى المصنع. لم يكن له وقت لتبادل الحديث طويلا معنا، إذ أن المعركة الساخنة كانت تدور من أجل تنفيذ التعليمات الملحة التي أعطاها الزعيم العظيم. أخيرا، تم إنتاج مليون نظارة.

في يوم تلقى فيه ثناء وشكرا من الزعيم العظيم الذي تسلم تقريرا عن إنتاجها، قال أبي لنا:

- إن النظارات ليست شيئا كبيرا، ولا كنزا قيما. لكني أشعر بأنها قيمة مثل كنز، لأن زعيمنا يعتبرها شيئا قيما. الآن، أشعر بإشراقة عينيّ أيضا، إذ أني صرت أرى حبا كبيرا للشعب من خلال عدسات الزجاج العادية أيضا.

بعد مضي عشر سنوات من ذلك، مع بدء اشتغالي بقطاع النظارات، أصبحت أتذكر مرارا ذلك الكلام الذي تفوه به أبي في ذلك اليوم عن عدسات الزجاج والحب الكبير. واضح أن أبي كان بوده أن يقول إن الزعيم العظيم فتح عيني عضو الحزب ليرى بوضوح حبا حقيقيا للشعب.

حقا إن الزعيم العظيم قاد أبي الذي كان مقيدا بالمال بالأمس إلى طريق الحياة الوطنية الحقيقية، وفتح اليوم عيني أبي الذي كان يتطلع إلى المال فقط حتى تكونا عينين مشرقتين لعضو الحزب تريان الشعب بالفعل. بفضل حبه العظيم، كان أبي يخطو خطى مدوية مفتخرة على طول نصف حياته الأخير.

في ذلك العام، استقبلت أنا ربيع التاسعة عشرة من عمري. كنت على وشك

التخرج من المدرسة المتخصصة العالية للطب. حين كنت منهمكة في تحضير امتحانات التخرج في بيتي، عاد أبي، ورأيته منفعلا جدا. سألته أثناء الدراسة للامتحان لماذا رجعت مبكرا. قال أبي إنه عرج على البيت للحظة على طريق ذهابه إلى المصنع، وقال فجأة إنه يود أن يسمع صوت عزفي على البيانو. عندئذ، تملكتني الدهشة. طبعا إن أبي سعى كل السعي لتربيتي كفنانة. ولكن منذ اخترت أخيرا طريق الطب مثل إخوتي، لم يطلب مني ذلك.

جلست أمام البيانو، وفكرت للحظة، وبدأت بعزف الأغنية "إلى إليزي" بتلحين بيتهوفن، لإشراق مزاج أبي. لكن أبي هز رأسه رافضا. يعني أن ذلك لا يعجبه. فقلت في نفسي إن أبي كان يحب سمع ألحان الأغاني الشعبية في بلادنا، وصرت أعزف لحن "يانغساندو" المرح.

لكن أبي هز رأسه هذه المرة أيضا. ثم جلس على الأريكة، وأغمض عينيه. ربما كان يسعى لأن يهدئ نفسه، دون أن أعرف سببه. إني أخذت الكمان الجهير حسب طلب أبي، وبقيت أتطلع إلى أبي الذي ظل يغمض عينيه. حينذاك، خطر على بالي أن أبي يصبر بصعوبة على تدفق الدموع. لم يكن ذلك لسوء الصحة أو لأي أمر يزعجه. رأيته مستغرقا في لجة من الانفعال الكبير الناجم عن السرور والسعادة. فسألته:

- ماذا حدث بك، يا أبتي؟

- أجل، حدث أمر ما.

رد عليّ هكذا بصوت منفعل، وتأمل وجهي بعد أن فتح عينيه، وقال في همس:

- كلفني أنا أبيك اليوم القائد العظيم كيم جونغ ايل بالمهمة بالغة الشأن، واثقا بي...

(آه، كان لهذا السبب). فكرت هكذا في نفسي. لهذا السبب، صار وجه أبي موردا، لأكبر سعادة وسرور يغص في حلقه. أصبح وجهه محمرا لشدة انفعاله وتأثره، رغم أن علائم المرض بدت على وجهه، منذ بلغ عمره مرحلة شيخوخة.

تنفس أبي لاهثا، وقال بهدوء:

- يا بنتي سونغ هوي، تعرفين أنت تلك الأغنية التي أحبها تقول "تسطع السماء بوهج الصباح...". أرجوك أن تعزفي تلك الأغنية.

كان أبي يرجو لحن الأغنية "سنخلص لكم جيلا بعد جيل".

فإني قمت بترتيب النغمات ودهنت الصمغ على الأوتار، وتنفست هواء بهدوء. أسند أبي رأسه مرة أخرى على مسند الأريكة، وأغمض عينيه. رأيت قطرات الدموع تتسرب من عينيه المغمضتين. شعرت أنا أيضا بتدفق الدموع من عينيّ فجأة دون سبب. رحت أوتر القوس بهدوء:

حينما تسطع السماء
بوهج الصباح المبكر
أفكر في ابتسامته الحلوة
حينما تبتسم النجوم
في سماء الليل الهادي
أحن إلى حبه الدافئ

بكى أبي وبكيت أنا أيضا. حينما يغني جميع أبناء شعبنا هذه الأغنية، لا يمكنهم أن يكبحوا تدفق الدموع. وكلما نفكر في ابتسامه الحلو والحنون، لا

نستطيع أن نتمالك أنفسنا من التأثر. فإن أبي أيضا كان يغنيها في نفسه على نغمات الكمان وعيناه نديتان بالدموع، وكانت عينايّ هما الأخريين مبللتين تماما بدموع السرور والسعادة التي تغلي في صدر أبي.

أخيرا، انتهت الأغنية، لكن أبي ما زال جالسا دون حراك، وقام من مكانه، ووضع يده الكبيرة السميكة على كتفي، وقال:

- كان زعيمنا يبرزني دائما واضعا ثقته في نفسي أنا أبيك، لكن اليوم يضمني القائد العظيم كيم جونغ ايل في حضنه. كيف أستطيع أن أرد على هذا الحب والكرم. عليّ أن أذهب، لأخوض معركة، فلا تنتظريني من الآن فصاعدا.

توجه أبي لتوه إلى المصنع هكذا.

في ذلك الحين، كان كثير من الكوادر يرون أن منتجات الزينة اللازمة لتزيين داخل الصروح المعمارية الكبيرة التي تتطلب المواد الطيبة وبراعة صنعها المتقنة يجب استيرادها من بلد آخر، وهي أفضل وسيلة. إذا بدأ إنتاجها محليا دون أي خبرة في صنعها فإن الأوقات الكثيرة تهدر من دون جدوى، وفي النهاية، لا يمكن ضمان موعد تدشين المبنى، فقد اقترحوا باستيرادها.

إلا أن قرر القائد العظيم كيم جونغ ايل إسناد هذه المهمة إلى تعاونية بيونغ يانغ لإنتاج زجاج البصريات التي يعمل فيها الرفيق سونغ داي كوان قائلا:

- لنكلفه بهذه المهمة. إنه نفذ أي عمل يريده الزعيم الأب مهما كلف الأمر منذ عقب التحرير حتى اليوم. سوف ينفذ هذه المهمة أيضا حتما.

كم تكون هذه ثقة عظيمة به! كان الزعيم العظيم يقوده بحبه الكبير وثقته العظيمة قائلا إنه سيأخذه إلى المجتمع الشيوعي، واليوم، يقوده القائد العظيم كيم جونغ ايل دون تغير. ولذا فإن أبي استعاد مرة أخرى شبابه، رغم أن عمره

قد بلغ مرحلة الشيخوخة. فقد اختفى منه المرض الذي داهمه في وقت مبكر. انتعش منه الشباب النابض.

استقبل أبي الربيع الجديد لحياة الإنسان.

في ذلك الحين، استقبلت أنا التاسعة العشرة من الربيع، لكن أبي استقبل الثاني والستين من الربيع.

قيل إن الشجرة أيضا تصبح مجوفة جذعها، إذا تقدم بها العمر. لكن أبي استقبل مرة أخرى ربيع حياته الإنسانية، حين بلغ عمره ٦٢ سنة. وما دام الأمر هكذا، كان القائد العظيم كيم جونغ ايل هو الشمس التي تأتي بالربيع إلى حياة الإنسان. ولذلك، كان أبي يسمع تلك الأغنية والدموع تفيض من عينيه. من المتأسف أني عاجزة عن وصف قلب أبي الذي كان يذرف دموع السرور والسعادة في ذلك اليوم كما هو عليه.

بدأ أبي بمعركة إنتاج الخرزات الزجاجية مفعما بالحيوية والنشاط. كان يرسم التصميمات مع التقنيين والعمال، وخاض معركة الصنع ليل نهار، فيما هو يعالج المواد الأولية باليد أو بالمبرد، حتى أنتج أخيرا ١٠٠ ألف خرزة زجاجية، بحيث كان من الممكن تزيين المبنى على نحو فخم بها.

لم يكن ذلك فحسب بل إن قلبه الملتهب ينعكس على شعلة برج فكرة زوتشيه، التي تضيء الدنيا بلهبها المشتعل دون تغير في أربعة الفصول بغض النظر عن هطول الثلوج أو الأمطار، شعلة قضية الاستقلالية، التي لا تخمد إلى أبد الآبدين. فإنني أتطلع إليها دائما مفعما بالفخر والاعتزاز الكبير.

مهمة إنتاج الزجاج الصلد الشفاف لشعلة برج فكرة زوتشيه أيضا أسندها القائد العظيم كيم جونغ ايل إلى أبي. حين اقترح له الكوادر باستيراد هذا الزجاج

لعدم إمكانية إنتاجه في أحد مصانع الزجاج، رفضه القائد بتاتا قائلا إن شعلة النصب التذكاري الكبير الذي سيمجد فكرة زوتشيه الخالدة التي أبدعها الزعيم العظيم إلى أبد الآبدين كيف يمكن صنعها بالزجاج المستورد.

هذه المرة أيضا، فكر القائد العظيم أبي. أيقن القائد بأنه سيرد بالإخلاص والواجب الأخلاقي على الثقة والآمال، كما كان في الماضي، رغم أنه صار طاعن السن في السبعين من العمر.

من زمان، قيل إن "عيش السبعين من العمر أمر نادر"، لكن القائد العظيم كلف دون تردد أبي الذي تجاوز السبعين من العمر بتلك المهمة بالغة الشأن.

من المعروف للعالم أن برج فكرة زوتشيه يساوي ارتفاع شعلته الزجاجية وحدها ارتفاع البيت السكني المؤلف من ٥ إلى ٦ طبقات.

حين تسلم أبي مهمة إنتاج الزجاج الصلد الشفاف اللازم لتلك الشعلة، اعتزم قائلا في نفسه:

سأبذل إيماني وواجبي الأخلاقي كليهما لشعلة قضية زوتشيه الثورية، التي ستشتعل كشعلة العصر والتاريخ، شعلة النضال والإيمان التي ستضيء الانتصار المشرق لقضية الاستقلالية بلهب الثورة، دون تزعزع لأي عاصفة عاتية، شعلة برج فكرة زوتشيه الخالدة، وسأبذل للهب تلك الشعلة طول حياتي التي تألقت في أحضان الشمس العظيمة.

في الواقع كان ثمة في ذلك الحين مصنع نامبو للزجاج، الذي كان حجمه أكبر بكثير من تعاونية بيونغ يانغ لزجاج البصريات، الذي يعمل أبي مديرا له. كان ذلك المصنع كبيرا جدا من حيث معدات الإنتاج أو قدرة إنتاج الزجاج الضخم. لكن القائد العظيم كلف التعاونية التي كان يعمل فيها أبي واثقا به بمهمة

إنتاجه. ما دام القائد يثق به، كان أبي مستعدا حتى لقطف النجوم من السماء، إذا أراده. ولذلك، أجاب أبي دون تردد: سمعا وطاعة.

سأنفذ تلك المهمة، مهما كلف الثمن. ولكن إذا لم تنفذ المهمة في موعدها، فماذا سيحدث بعد ذلك؟ كان كثير من الكوادر المسؤولين يقلقون، لأنه أجاب بفرط من السهولة، رغم أنها تكون مهمة مرهقة له.

بدا لهم أن أبي يظهر ثقته المفرطة بنفسه. منذ ذلك اليوم، توافد إليه كثير من الناس حتى تشب النار في مفصلة الباب. كانوا جميعا يعبرون عن قلقهم وهمومهم. لكن جواب أبي كان واحدا على الدوام:

- هذه المهمة كلفني بها القائد العظيم. فلا بد من تنفيذها مهما كلف الثمن.

كان أبي منهمكا في العمل ساهرا كل ليل تقريبا، إلى جانب العمال.

كان ذلك الحين هو موسم الرياضة، فقد كانت المباريات بكرة القدم من فرق المرتبة المركزية تقام بازدهار. أود أن أتطرق هنا للحظة إلى القصة عن كرة القدم. في الحقيقة إن أبي لم يكن يعرف إلا عملا.

ولكن كانت له هواية جنونية لكرة القدم، على الرغم من أنه كان غير بارع في هذا اللعب بل الأكثر أنه كان جاهلا للعب بكرة القدم. ذات مرة في أحد أيام العيد، أقيمت حفلة التسلية في الهواء الطلق، حيث جرت مباراة كوادر التعاونية بضرب الكرة بالقدم لإيداعها في المرمى.

كانت هذه المباراة تقرر الفائز بعد تفريق الكوادر إلى الفريقين، ليضرب أحدهم الكرة بقدمه والآخر يدافع عن المرمى منها.

ففي أرض الأعشاب، نصب المرمى، ويضرب أحد الكرة بقدمه على مسافة نحو خمسة أمتار من المرمى. في بداية الأمر، كان من المقرر أن يضرب أولا،

أبي رئيس مجلس إدارة التعاونية، الكرة نحو المرمى الذي يدافع عنه أمين الحزب في التعاونية (في ذلك الحين).

كان جميع الناس يتوقعون أن أبي "المجنون المريع في كرة القدم" سيسجل أول هدف بارع.

فقد كان تشجيع الناس عظيما.

ولكن حين رؤوا أبي يضرب الكرة بقدمه، انفجروا ضاحكين حتى وجعتهم جنوبهم. لشدة ضرب الكرة، غرز مقدم حذائه في تراب أرض الأعشاب حتى تناثر التراب إلى الجوانب، ولم تبلغ الكرة حتى المرمى القائم على بعد خمسة أمتار... وكان التراب المبعثر دخل في عيني أمين الحزب في التعاونية، حتى دار ممسكا بعينيه.

منذ ذلك الحين، ألصق على أبي لقب "رئيس المجلس الإداري لكرة القدم". بما أن أبي "مجنون لكرة القدم"، لم يستطيع لاعبو التعاونية بكرة القدم أن يدخلوا مدخل تعاونيتهم دون الفوز في كل مباراة.

لشدة ولوعه بكرة القدم، قد شاهد ذات مرة مباراة النهائي بكرة القدم على المستوى المركزي، في وقت الدوام، بعد أن تذرع بأنه يشترك في الاجتماع الهام. لكن الحقيقة تكشفت لأن التلفزيون بث أبي الجالس على مقعد المشاهدين. لشدة حماسته في التشجيع، كان مصور التلفزيون التقط صورته لعدة مرات.

كان أبي يحب روح الهجوم الساخن وقوة الجلد والإرادة الكفاحية في كرة القدم. ربما وجد ما يشبه بمزاجه في مشهد اللاعبين الذين يندفعون جارين دون كلل حتى النهاية.

إلا أن أبي لم يشاهد ولو مرة واحدة المباريات بكرة القدم للاعبين في فرق الرياضة المركزية، في أيام معركة إنتاج الزجاج الصلد الشفاف. لم يسع إلى مشاهدتها. فقال هذا "المجنون المريع لكرة القدم" ملوحا بيده، رغم أنه سمع إجراء مباراة النهائي:

- ذلك لا شأن بي. أنا أيضا أكون في أوج دهدهة الكرة. أكون الآن على وشك ضرب الكرة إلى المرمى.

أخيرا، ضرب الكرة، وسجل هدفا. شهد نجاحا في الإنتاج الاختباري للمرة التاسعة.

هكذا، نجح أخيرا في إنتاج الزجاج الشفاف الذي يتسوى توزيع إجهاده وأصبح صلدا. سقطت الكرة الزجاجية بحجم كرة التنس (٩٠٠ غرام) من على ارتفاع ١٠٢ سنتيمتر، لكنها لم تتكسر، ولم تكن فيها حتى شقوق شعرية مثل نسيج العنكبوت.

هذه المرة، وضعت اللوحة الزجاجية بحجم متر مربع بعد نصب الطوبين تحت كل طرفيها، ووقف عليها المرء بوزن ٧٠ كيلوغراما، لكن اللوحة الزجاجية لم تتكسر، وحتى إذا وقف شخص آخر بجانبه فإنها كانت تصمد، وحين وقف حتى أبي إلى جانبهما، ترامى صوت تشققها، فنزل أبي منها على عجل.

في يوم رفع تقرير الإخلاص إلى القائد العظيم، التقطت الصورة لأبي الواقف مع العمال والتقنيين الذين كانوا يعملون معه. أصلا إن أبي لم يحب التقاط الصور له. فإنه كان يتهرب دائما من صحفيي التصوير والمصورين.

لكنه شعر بالفخر لما بذله من العرق والإخلاص لبناء برج فكرة زوتشيه،

كما أنه أحس بالاعتزاز بنفسه لأن خلاصة طول حياته تتشرب بذلك اللهب الأبدي، حتى تم التقاط الصورة له.

قال أبي لنا دائما بعينيه المبللتين بالندى: كيف أستطيع أن أنسى ذلك الحب الممتن، حتى إذا مت. لا أرى حتى الآن دون التفات كل الخرزات الزجاجية والثريات والبلوكات الزجاجية المزينة في الصروح المعمارية.

كلما رأيت شعلة برج فكرة زوتشيه، شعلة الشمس الخالدة، لا يمكن كبح غصة في حلقي. كما هو معروف أنه حتى قطرة من الندى يمكن لها أن تتألق حينما تضيئها أضواء الشمس.

فإني أفتخر بصوت عال أن طول حياة أبي الذي تمتع بالحياة المتألقة في أحضان الشمس كان حياة شريفة ومستقيمة عاشها دون تغير على طريق الإخلاص والوفاء.

٣- حياته المباركة

في أحد الأعوام، صار الزعيم العظيم كيم ايل سونغ يقوم بالزيارة التاريخية لبلد آخر. صنع أبي بكل إخلاص نظارة سيلبسها الزعيم الأب. بعد أن تسلم الزعيم هذه النظارة، عبر عن رضاه الكبير قائلا إنها تم صنعها على أفضل وجه، وتخلى عن كل النظارات رفيعة الجودة الأخرى. وأعلن أنه سيلبس نظارة صنعها الرفيق سونغ داي كوان، حين يزور بلدا آخر، وأن شيئا يخص ببلدنا هو الأفضل. بعد أن زار بها بلدا آخر، عاد إلى الوطن، وأثنى قائلا إن النظارة التي صنعها الرفيق سونغ داي كوان مريحة وطيبة جدا.

بعد أن سمع أبي أن الزعيم الأب عبر عن رضاه الكبير لما صنعه من النظارة، عاد إلى البيت، وقال لنا مفعما بالسعادة:

- قال الزعيم الأب إن ما صنعته من النظارة هو الأفضل. إذا كان ثمة في هذه الدنيا أسعد إنسان هو أنا سونغ داي كوان، أبوكم بالذات، يا أولادي.

استمرت مفاخرة أبي هذه في الفترة اللاحقة أيضا. حين قابل التجار وأصحاب الأعمال من المواطنين المقيمين في الخارج، قال لهم مفاخرا إن الزعيم العظيم زار بلدا آخر، بعد أن لبس نظارة صنعها هو بالذات. بعد أن رؤوا الدموع ترقرق في عيني أبي الباسمتين، سألوه بتأثر:

- السيد سونغ داي كوان، نراك شخصا ينعم بالسعادة الحقيقية. أصلا إن أصحاب الأعمال لا يمكنهم أن يعيشوا مطمئني البال ولو للحظة واحدة، ولكنك،

يا سيد سونغ، كيف تستطيع أن تعيش براحة بال وبوجه مشرق؟

سمعت أن أبي بدأ حينذاك بالجواب، بالكلام المضحك التالي: قيل من زمان إن للإنسان عينين وأذنين ويدين ورجلين، ولكل منها سبب وجيه، إذ أن العينين للرؤية بتمييز الصدق من الكذب، والأذنين لسمع إحداها ونسيان الأخرى، واليدين لإعطاء شيء باليد وتسلم شيء بالأخرى، والرجلين للوقوف بارتكاز إحداهما على الأخرى لأن الوقوف بالواحدة خطرا.

حين سمعه التجار وأصحاب الأعمال المغتربون، ضحكوا جميعا بمرح. قال أحدهم إن هذا القول ليس قول القدماء في رأيه. أ ليس هذا كلاما صنعته أنت يا سيد سونغ. وسأله أ ليس هذا الكلام صنعته قاصدا به إلى أصحاب الأعمال. عندئذ، أجاب أبي مبتسما أن أصحاب الأعمال كانوا في مصير نار الشمعة أمام الريح في أي زمن.

كان من المعتاد أن يعيشوا في ضيق دون راحة بال ولو للحظة واحدة، دون أن يعرفوا متى وكيف يخبون مثل نار شمعة أمام الريح. وكيلا ينخدعوا بالآخرين، كانوا يوترون أعصابهم دائما، ويتعرضون لاحتقار الآخرين وازدرائهم في ضمنهم، ويسعون كل السعي للحصول على شركائهم الأمناء. وما دام الأمر هكذا، ليس من مبالغة القول إن القصة عن العينين والأذنين واليدين والرجلين تقصد إلى أصحاب الأعمال.

ولكن ليس لي قلق على الانخداع بالآخرين، لأني أقوم بالنشاطات الاقتصادية في وطني الاشتراكي، لا البلد الرأسمالي. إن الأم لا تخدع أبناءها. فلماذا يخدعني ويأكل على حسابي الوطن الأم. كما أني لا أقلق على تعرضي لاحتقار وازدراء الآخرين، لأني أهدف بنشاطاتي الاقتصادية إلى منح مزيد من المصالح

لوطني الاشتراكي. كما أني لا أقلق على سقوطي رغم كسب المزيد من الأرباح. لم أعش مقلقا ولو مرة واحدة فيما أنا أوتر أعصابي بضيق الصدر خوفا من خبو مصيري في أي وقت مثل نار الشمعة أمام الريح، لأن الزعيمين العظيمين كانا يقودانني طول حياتي.

إذا سار الابن ممسكا بيدي والديه، فإنه لا يقع. وبالمثل، كنت أسلك طريقا مستقيما دون أن أقع طول حياتي.

هكذا، قص أبي بالتفصيل عن مسار حياته المشرفة التي قادها الزعيمان العظيمان بأيدي حبهما، بعد أن ربياه وأبرزاه كوطني وعضو حزب، رغم أنه كان صاحب أعمال خاص ناكر اسم. وفي النهاية، إنه كسب مليارات الأموال، وبتلك الأموال، كان يتفانى للوطن والشعب، حتى نال حب الشعب وحب الزعيمين بما لم يكن يناله أي صاحب من أصحاب الأعمال، وصار يتمتع بشرف وسعادة لا يمكن شراءهما ببلايين الأموال. فإن التجار وأصحاب الأعمال المغتربين صفقوا له، وقالوا بتأثر إن السيد سونغ داي كوان صار "مليونيرا اشتراكيا" وحيدا في العالم، وإنه "مليونير" في كوريا الاشتراكية، يملك الخيرات المادية والروحية كلها.

ومنذ ذلك الحين، سمي أبي بـ"المليونير الاشتراكي". لكن ما تلقاه أبي من الحب والثقة والسعادة والمتعة والشرف غير المحدود لم يقتصر على ذلك.

حين تجاوز عمر أبي سبعين سنة، تحمل منصب مستشار التعاونية الذي يساعد شؤونها بتقنياته وتجاربه المكتسبة، مع أخذ راحة مناسبة لصحته.

لكن أبي كان يندفع جاريا دون كلل لمواصلة التمسك بزمام أمور التعاونية، دون الاقتصار على إعطاء النصائح المناسبة في وراء الآخرين. لأن وجود أبي

لم يكن بوسع تصوره بعيدا عن العمل. كان يذهب إلى المصنع صامتا، ويعود منه صامتا.

لم يكن ينساه القائد العظيم فعلا. بعد أن تلقى التقرير عن أبي، حرص على إعادة تفويضه منصب رئيس المجلس الإداري.

في ذلك اليوم، أخذ في يده كأسا ملأناه نحن أولاده بالخمر لأول مرة من انقطاعه عن شرب المشروبات الكحولية، ولا يمكنني أن أنسى حتى الآن تلك الدموع الحارة التي كانت تترقرق في عينيه، فيما هو ينظر إلى أبنائه وبناته السبعة وأحفاده، وعلى يده المرتعشة ذلك الكأس.

في ذلك الحين، كان عمره ٧٤ سنة.

لم يخف أبي دموعه. لم يخفيها؟ شرب أبي ما في الكأس من الخمر الممزوج بالدموع التي تقطر في الكأس لبكائه الصامت.

ذات يوم بعد فترة من ذلك، قال أبي بسيماء جدية، فيما هو يجول بناظريه في أبنائه وبناته:

- قيل إن الجواد الهرم يعرف الطريق، لكنني لم أؤد كل ما يتوجب عليّ أن أؤديه، فإني أشعر بندامة، لأني لم أرب خلفا لعملي...

أعطى كلامه هذا صدمة كبيرة لأبنائه وبناته. عندئذ فقط، شعرت لأول مرة بخجل على تصرفاتي الماضية التي تتباهى بمهنة الطبيب، وسألت لنفسي هل أن مهنة الطبيب التي اخترتها باختيار ذاتي هي سبيل لا بد لي أن أسلكه حتما؟ هل فكرت أن بنته لا ابنه ليس لها واجب لتتبعه؟... لكن ذلك هو مسألة ضمير وأخلاق، لا واجب. بدا لي أن أبي ما زال يريد أن ينبري أحد من سبعة أبنائه وبناته ولو الآن.

ربما أراد أن يرد على طول حياته المباركة جيلا بعد جيل مهما كلف الأمر. أخيرا، اعتزمت على مواصلة عمله، حتى أصبحت عاملة تصليح نظارات. لنقل اعتزامي ذلك إلى أرض الواقع، استغرقت عدة الأشهر.

على الرغم من أن "السيدة الدكتورة" و"الدكتورة سونغ" هي كانت التسمية لي حتى الآن، لكني صرت الآن عاملة تصليح نظارات تعالج العدسات الزجاجية وتركبها بالملقط، جالسة بجانب الرجال الذي يصلحون أقلام الحبر ويحفرون ختما في تعاونية موران للتسهيلات والإنتاج.

استغرب كثير من الناس قائلين إن روحي هل طارت. وكانوا يرونني بعيون الإشفاق عليّ، كما لو أني تعرضت لعقاب ما.

لكن ذلك لم يكن سهلا مثل الكلام. كما أني لم أعقد عزما بسهولة. اعتبرني أبي جديرا بالرضا والثناء، وموضع سروره الكبير. فقد كان أبي يهتف غاضبا لمن لا يفهمونني: إن الصواب مع سونغ هوي، ولا تمسّوا بها. في ذلك الحين، نجح أبي في إنتاج الزجاج المصقول بالشرارة الذي بدأ به حين كان على وشك انتقاله إلى منصب المستشار. ما زال أبي يسلك طريق الإخلاص والوفاء للرد على ما ناله من الحب والثقة.

لمدة ثلاث سنوات منذ ذلك الحين، كنت أعمل كعاملة تصليح النظارات. أخيرا، عقدت عزما على استحداث محل مستقل لتصليح النظارات. هذه المرة أيضا، كان أبي هو أول من أيّد عزمي. قال أبي:

- لا عليك أن تخضعي إرادتك، إذا عزمت على ذلك مرة، بغض النظر عن أقوال الآخرين.

حصلت على مبنى بقوتي الذاتية، كما حصلت على اللوازم بالذات أيضا، وتلقيت مساعدة من النجار والبلاستر. وفي الليل، كنت أحرس المحل بوحدي، فيما أنا أستعد لعمل يوم الغد. أخيرا، أكملت إعداد المحل، وبعد تبييض حائطه، علقت لوحة بسيطة كتب عليها "محل كايسون لتصليح النظارات".

لمدة ثلاث سنوات منذ ذلك الحين، قمنا بتصليح مئات الآلاف من النظارات للعمال والفلاحين والعلماء والمدرسين والصحفيين وعمال تنظيف الطرق سواء أ كانوا في المصانع أو المؤسسات أو أجهزة البحوث العلمية أو مؤسسات الصحافة والإعلام وغيرها في أنحاء البلاد.

قدر القائد العظيم تقديرا عاليا عملنا المنجز، وحرص على استحداث مخزن بيونغ يانغ للنظارات في شارع آن سانغ تايك على سفح جبل موران جميل مناظره الطبيعية، وذلك بغرض سد حاجات الشعب المتزايدة للنظارات.

مخزننا الجديد هذا يتوافد إليه حتى الأجانب فضلا عن أبناء شعبنا، ويقدم المواطنون المغتربون أيضا مساعداتهم المادية والروحية السخية له. إن القصص التي أود أن أتحدث عنها لا حدود لها، لكن الأعمال التي يجب علينا أن نقوم بها من الآن فصاعدا هي أكثر مما أديناه من الأعمال.

ما زلنا في البداية بعد. ولكن أود أن أقول هنا إني أعمل بكل ما في وسعي دون راحة حتى الآن، للرد على حب وكرم القائد العظيم الذي عبر عن سروره الأكبر من أي شخص آخر حين تلقى تقريرا عن صنيعي الجميل ولو قليلا، وقدم لي شكره لست مرات، وجعلني أقف على منصة الرئاسة في المؤتمرات الكبيرة في كل مرة أتيحت لها فرصة، دون أن يميّزني بكوني ابنة لصاحب الأعمال.

في ذلك الحين، أعيد تنصيب أبي كرئيس مجلس إدارة مؤسسة كبيرة ينوف أفرادها على آلاف العمال، بفضل حب القائد العظيم وثقته الكبيرة به، رغم أنه

صار طاعن سن بلغت ٧٤ سنة، وكان يعمل بنشاط وحيوية دون تغير، حتى يتجاوز عمره ٨٠ سنة.

فقد انطبعت الآن بصمات حياة أبي على العاصمة بيونغ يانغ وأنحاء البلاد.

صار بوسع أبي أن يرى بفخر وسعادة جديرين "بالمليونير الاشتراكي" كثيرا من المنشآت مثل مصنع كانغكي للأقلام، ومصانع المطاطا في أنحاء البلاد، ومصنع الزجاج، وشعلة برج فكرة زوتشيه وهو النصب التذكاري الكبير ومسرح مانسوداي الفني، والزينات داخل مترو بيونغ يانغ، والعمارات السكنية المنتصبة في شوارع تشانغكوانغ وكوانغبوك وتونغئيل، وأدوات البصريات والأدوات الاختبارية في مؤسسات العلوم والتعليم، ومصابيح الإضاءة على خشبات المسارح والمناظير ذات العينين، وحتى النظارات التي يلبسها ملايين الناس.

كان أبي يقول من حين لآخر "إن الاشتراكية أفضل حقا!". كلما يرى العمال ينتقلون إلى البيوت السكنية المبنية في شارع جديد، والأولاد يلعبون بالماء في مسبح دار تشانغكوانغ للصحة والاستجمام، لابسين النظارات المائية، وحينما يدخل المترو، اعتاد على القول "إن الاشتراكية أفضل حقا!".

ربما كان ذلك هو ثناء أبي على النظام الاشتراكي المشكور الذي بذل له طول حياته، كما كان ذلك هو وجاهته وفخره المنعكسان على نوافذ السعادة والخرزات الزجاجية والنظارات المرتبطة بطول حياته التي تمتع بها وسط المحبة والمكارم غير المحدودية التي أحاطها به الزعيمان العظيمان.

لكن صحة أبي بدأ بالانحراف بالتدريج. في البداية، كان يعتبره أمرا تافها، لكنه اضطر إلى لزوم الفراش.

كان يدرب على جسمه بتدليكه بالماء البارد طول حياته، حتى كان يمر بأي مرض عادي دون دواء، لكن أمره لم يكن عاديا هذه المرة. فقد صار عمره طاعن سن تجاوزت ثمانين سنة. فكانت الصحة بعيدة عنه، والمرض الشيخوخي أقرب منه. في ذلك الحين، كنت قد اشتركت في المؤتمر الوطني لرواد العادات الشيوعية الجميلة. فقد صار أبي يشاهد في التلفزيون مشهد ابنته المشاركة في هذا المؤتمر، راقدا على السرير.

بعد ارفضاض المؤتمر، أسرعت إلى أبي. أمسك أبي بيدي بقوة طويلا، دون أن يفلتها منه.

كانت عيناه مبللتين بالندي، وكان صوته مبحوحا بالانفعال، حين قال:

- كنت تشرفينني مرة أخرى. قال لي كثير من الناس بالهواتف إن ابنتك جديرة بالاستحسان، وكنت أول من الحائزين على وسام العلم الوطني من الدرجة الأولى. أ ليس كذلك. قالوا إن الابنة صنو أبيها.

يقال كثيرا إن الابن صنو أبيه، لكن الابنة صنو أبيها نادرة. لكن ذلك لا يهمني. صرت على كل حال خلفا لأبي، ورحت أسلك طريق الإخلاص والوفاء مثل أبي.

قال أبي وهو يتحسس وسام العلم الوطني من الدرجة الأولي الذي تلقيته في المؤتمر:

- عليك أن تعرفي كم قيمة هذا الإكرام الرسمي.

لقد أكرمك القائد العظيم تقديرا لإنجازاتك في العمل وانتظارا للمزيد من النجاحات في عملك. لا تنسي ذلك.

وحثني أبي على الذهاب سريعا إلى العمل ومواصلة أداء واجبي قائلا إنك

اشتركت في المؤتمر، وألقيت كلمة فيه. فلا يجوز لك أن تبقي إلى جانب الأب. أنا بدوري سأقوم عن قريب، وأذهب للعمل.

إلا أنه جاء إلى أبي ذلك اليوم الذي اضطر فيه إلى رفع يده عن العمل أخيرا. في يناير/ كانون الثاني من العام التالي، سقط أبي أخيرا. في ذلك الحين، كان البرد في منتصف الشتاء قارسا جدا. أدركت أن وقت الاحتضار يدنو من أبي، في لون وجهه وعينيه الغائرتين وحدقتيهما اللتين تخبوان، ولكن أفلت فجأة من فمه قول: ارجعوا إلى العمل! تفضلوا!"

كان هذا هو أبي بالذات. حين أدرك الناس عادة خبو حياتهم، يرجون بقاء أقرب الناس، زوجاتهم وأولادهم إلى جانبهم.

ربما أراد أبي أيضا ذلك. لكنه لم يسمح ذلك، لأنه لم يعرف إلا عملا، وأراد أن يعمل أبناؤه وبناته أكثر للرد على حب ومكارم الزعيمين العظيمين، بدلا منه.

حين كنت في حفل الزواج أيضا، فعل أبي هكذا. حين كان الناس الكثيرون يثيرون ضجة صاخبة مخمورين وهم يرفعون أنخاب التهنئة، ويعبرون عن تمنياتهم بدوام حب الزوجين حتى شاب شعرهما، وإنجاب كثير من الأبناء والبنات وغيرها، قال أبي فجأة:

"عليكما أن تذهبا إلى موقع العمل منذ يوم الغد"، حتى صعق الناس منه. هذا هو أبي بالذات، ولذلك، اضطر أبناؤه وبناته إلى التوجه إلى مواقع عملهم هذا اليوم أيضا دون أي كلام. ولكن حين جاءنا خبر يفيد بأنه صار في خطر، أسرعنا إليه، حيث وجدنا أبي يكون في حالة الغيبوبة، لكنه دعا أولادهم إلى قربه، بإيماء عينيه. اجتمع جميعنا حول سريره بهدوء. حينذاك فوجئنا بأن أبي قال لنا بصوت واضح: "لو لم أضع حياتي في كنف زعيمينا العظيمين،

لأصبحت حشرة مال لا تعرف البلد والأمة. قال لي زعيمنا إنه سيقودني إلى المجتمع الشيوعي، لكني لا أذهب إليه حتى النهاية لقصر أجلي، إلا أني لا أشعر بالأسف الآن، لأني سلكت إلى اليوم وفاء لغايات الزعيم. آه، لقد وددت أن أتحدث لأصحاب الأعمال في جنوبي كوريا في يوم التوحيد عن المكارم التي بذلها زعيمانا العظيمان لي أنا كنت صاحب أعمال خاص في الأيام الماضية، لكني لم أنفذ ذلك ... أرجوكم يا أولادي أن تتحدثوا لهم بدلا مني، أن يتبعوا سياسة زعيمنا كيم ايل سونغ والقائد العظيم لشعبنا كيم جونغ ايل. ذلك الطريق هو طريق حياة الإنسان القيمة التي لا يمكن شراؤها حتى بمليارات الأموال...".

رحل أبي هكذا. هذا الرجل الذي كان يركض طول حياته لكسب الأموال، أبي الذي لم يكن يتعدى إلا صاحب الأعمال الخاص مضى سبيله الأخير بعد أن صار ثوريا يعرف الوطن والأمة والزعيم، "مليونيرا اشتراكيا" تمتع بالمجد والسعادة لحياة الإنسان التي لا يمكن شراؤها بمليارات الأموال، نظرا لنعمته بحب الشعب والحب الخاص من الزعيمين العظيمين معا والذي لم يكسبه أي صاحب من أصحاب الأعمال.

ولكن مثلما يقول قائل بأن الإنسان حين أدرك حقيقة، وجد الشيب قد نزل على رأسه، كان بالمثل حزنه لعدم الرد على ما تلقاه من الحب والعناية يثقل فؤاده على سبيله الأخير.

إلا أن الحب المبذول لأبي لم تكن له حدود. فقد أضاء روح أبي حب الشمس العظيمة، الذي لم يتصوره أنا وأفراد عائلتي جميعا.

حين تلقى الزعيم العظيم كيم ايل سونغ خبرا مؤلما لوفاة أبي، عبر عن عزائه وحزنه، وأرسل إكليل الزهور إلى رفاته، باسمه الشخصي، وحرص

القائد العظيم كيم جونغ ايل على دفن جثمانه في مقبرة الشهداء الوطنيين، لنقل مآثر أبي المنجزة أمام الوطن والثورة إلى الأجيال القادمة، وعدم نسيان الأمة له على مدى التاريخ.

بكينا جميعا، ولم يتمالك المعزون أيضا تدفق دموعهم. قد حدد أبي موقع قبره مسبقا، باعتبار نفسه شخصا عاديا، لكن القائد العظيم وضعه على ذروة المجد، تقديرا لمآثره المنجزة للوطن والشعب. أخيرا، جاء وقت تشييع رفاته. عزفت الفرقة الموسيقية الوطنية بآلات النفخ لحن التأبين. سار وراء عربة التابوت رتل من سيارات الركاب بأعداد كبيرة في شوارع العاصمة، وبدا أن لحن التأبين المهيب والمؤلم يفترش على أرض الطرقات الكبيرة مثل ضباب يخيم عليها.

تطلعت إلى التل الذي سيصعده أبي، فيما أنا سائرة وراء موكب الجنازة المهيب، ذلك التل من مقبرة الشهداء الوطنيين، تل الخلود الذي يصعده أبي بفضل حب الزعيمين العظيمين.

يصعد أبي ذلك التل، تل الخلود، يصعد أبي الآن ذروة المجد تلك، بكونه شهيدا وطنيا رغم أنه كان صاحب أعمال خاص. لو لم يكن الحب العظيم لصار منبوذا كحياة الإنسان المقيدة بالمال.

بكيت بصوت عال وأنا أمسك بتابوت أبي: "يا أبتي، هل تعرف أنك إلى أين تذهب؟ هل تعرف أنك تصعد مقبرة الشهداء الوطنيين؟ هل تسمعني، يا أبتي، افتح عينيك. انظر ولو مرة واحدة بعد فتح عينيك. يا أبتي...".

رغم أن الفصل هو فصل البرد القارس، كانت أضواء الشمس دافئة. كانت الشمس ترسل وابلا من أضوائها الساطعة والدافئة على مقبرة الشهداء الوطنيين المغطاة بالثلج الأبيض.

كلمة ختامية

على ذروة الأمجاد، انتهى طول حياة أبي سونغ داي كوان الذي سلك طريقا مستقيمة حتى النهاية دون الانحراف عنها، ولو مرة واحدة، بفضل الحب الذي بذله له الزعيمان العظيمان.

لكن أنشودة حبهما له استمرت دون توقف.

ففي سبتمبر/ أيلول عام ١٩٩٨، زار القائد العظيم كيم جونغ ايل سيارته مقبرة الشهداء الوطنيين، وذلك في منتصف عودته من زياراته التفقدية للجبهة البعيدة على عشرات آلاف ري (يساوي عشرة ري أربع كيلومترات).

تفقد القائد هذه المقبرة لأربع ساعات، حتى أسدل الظلام رداءه على الدنيا، حيث كان يتذكر إخلاص جنوده الذين لا ينسون، وأثنى ثناء عاطرا على مآثرهم التي ستبقى خالدة في التاريخ، فيما هو يتأمل صورة حجرية لكل منهم واحدة بعد الأخرى.

حين بلغ القائد صورة حجرية لأبي الذي كان صاحبا خاصا للأعمال بالأمس، قدره تقديرا عاليا وهو يقول إن الرفيق سونغ داي كوان كان صاحب الأعمال الوطني الذي يعرفه جيدا الزعيم، وقد عمل كثيرا.

مع انتشار خبر تفقد القائد العظيم لمقبرة الشهداء الوطنيين على نطاق واسع في الصحف والإذاعة والتلفزيون وغيرها، توجهنا نحن أبناؤه وبناته السبع إلى مقبرة الشهداء الوطنيين حيث يرقد أبي، بباقات الزهور النزيهة.

أولا، نقلنا خطانا ببطء على مسار زيارة القائد العظيم، فيما نطالع الأسماء المعروفة على نطاق واسع، أسماء كبار مسؤولي الحزب والدولة والكوادر الذين حققوا مآثر بارزة في بناء الحزب والدولة والجيش، والشهداء الذين سقطوا في النضال من أجل القضية المقدسة لإعادة توحيد الوطن، والعلماء والشخصيات المشهورة التي اجترحت مآثر خاصة في حقل الأدب والفن وغيرهم.

حين فكرنا أن أبي الذي كان أحد أصحاب الأعمال صعد تل الخلود هذا الذي يسميه المواطنون المغتربون بمقبرة الشهداء التي يرقد فيها كبار الرجال وحدهم، ازداد دفء قلوبنا.

أخيرا، بلغنا صورة أبي الحجرية. استقبلنا أبي بوجهه الرصين.

فكرت أن سيماءه هذا كان كما هو عليه حين قابل القائد العظيم مرة أخرى هنا، وربما سمع ثناءه العاطر بخشوع شاعرا بغصة في حلقه.

لم أكن أستطيع أن أرفع عيني عن صورة أبي الحجرية، فيما أنا أضع باقة الزهور أمامها، وتبادلت حديث فؤادي معه: "يا أبتي، ماذا تفكر الآن؟ وماذا تريد أن تقول لنا؟"

ومن وجهه الصامت، سمعت رجاءه الملح الذي يدوي كصدى:

- يا إبنتي سونغ هوي، أرجوك وأرجوك أن تدعمي القائد العظيم جيدا بدلا مني. عليك أن تردي بإخلاص ووفاء جيلا بعد جيل على أعظم مكارم وحب القائد. أي فلان يبذل ضميره للوطن والشعب يمكنه أن يلقي بنفسه في أحضان الحب العظيم وسعادة حياة الإنسان لا يمكن التمتع بها إلا في تلك الأحضان.

إني أفكر، وأثق بأن كل من يزورون مقبرة الشهداء الوطنيين هذه كائنا من كانوا يستطيعون أن يعرفوا حقيقة الحياة هذه التي لا تتغير.

أصبح صاحب أعمال وطنيا

تأليف: سونغ سونغ هوي
تحرير: يون يونغ إيل
ترجمة: سون تشونغ سونغ، كيل وون آ
ناشر : دار النشر باللغات الأجنبية،
جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية
إصدار: أغسطس/ آب ١١٠ زوتشيه (٢٠٢١)

E-mail:flph@star-co.net.kp
http://www.korean-books.com.kp

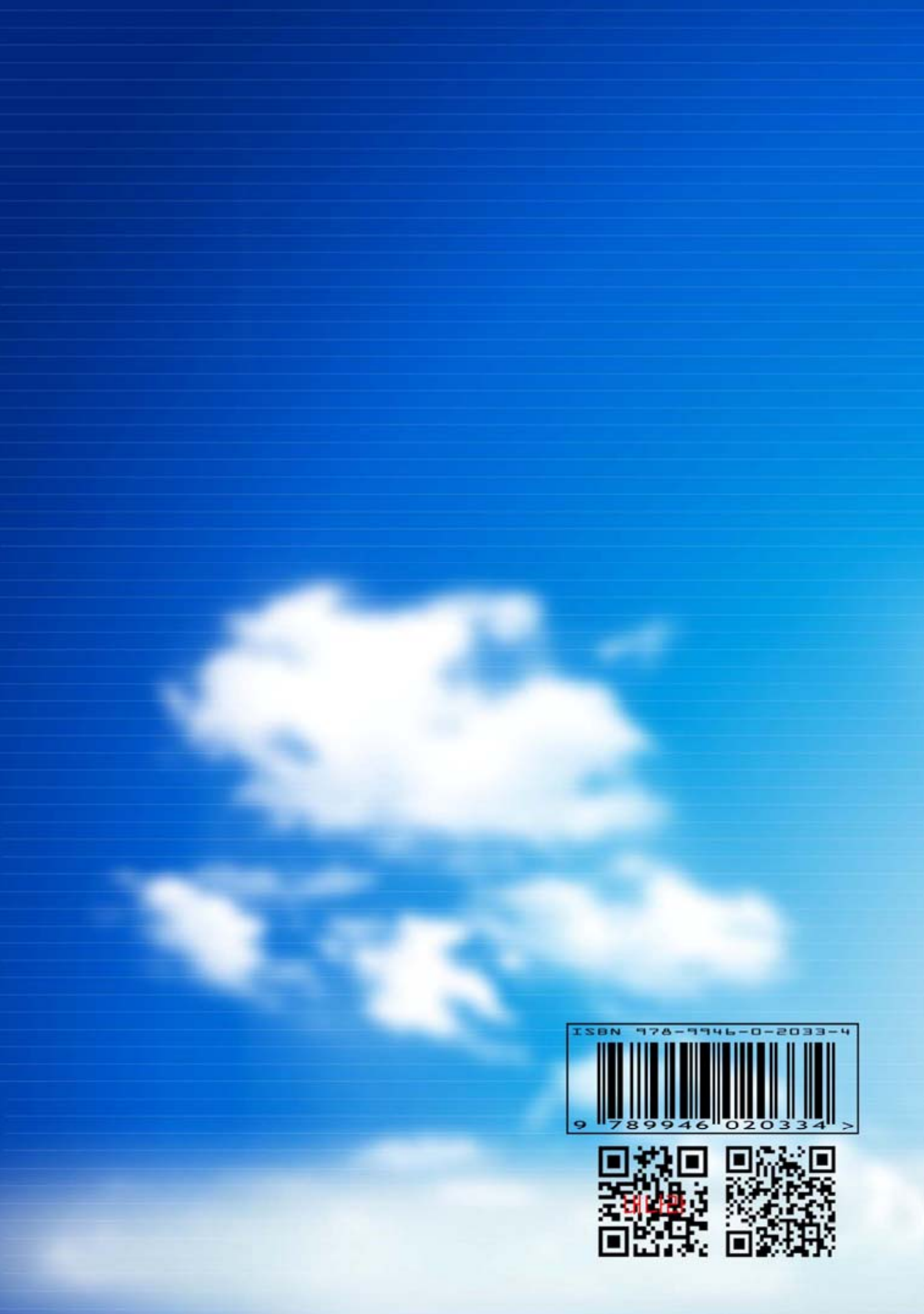

ISBN 978-9946-0-2033-4
9 789946 020334